مصطفى لغتيري

حب وبرتقال

سيرة روائية

مصطفى لغتيري

حب وبرتقال

سيرة روائية

- كتاب : حب وبرتقال
- تأليف : ذ. مصطفى لغتيري
- الطبعة الأولى : 2018

- جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

- الإيداع القانوني :
- ردمك :
- الناشر : غاليري الأدب

مطبعة وراقة بلال ش.م.م
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
S.A.R.L

BILAL
IMPRIMERIE PAPETERIE

N°100 Av. Sidi slimane Rue Al Madina Al mounawara
Hay Al Amal, Narjiss FES
Tél/Fax: 05 35 61 86 03 - GSM: 06 61 68 70 55
Imp.bilal@gmail.com - www.imp-bilal.com

هذه أمي كما عرفتها وأحببتها
وباسمها أهدي ما خطته يداي في هذا الكتاب إلى كل الأمهات في العالم، اللواتي يهبننا الحياة، ويسعين جاهدات ليقدمن لنا العالم كغنيمة حرب، نتصرف فيها- في كثير من الأحيان- برعونة ، غير عابئين بما تكابده تلك الجنديات النبيلات من أجل أن يكون ذلك ممكنا.

الفصل الأول

- ## البرتقال:

لأمي رائحة البرتقال ونعومته.. إلى يومنا هذا كلما تناولت حبة برتقال بين يدي، وشرعت في تقشيرها، تمثل في الذهن والقلب صورة أمي، متألقة، ناعمة، ومفعمة بالأحاسيس الجياشة.. أخلص البرتقالة من قشرتها قطعة قطعة، تدغدغني هشاشتها ... أبتسم ... أحلم .. ويغمرني شعور بالأمان .. يتناثر رذاذ خفيف يشبه غازا ينبعث من مسام القشرة، التي تنتشر كثقب صغيرة ودقيقة على امتداد سطحها الأملس، الناعم.. مع كل قطعة أتخلص منها يحضر ملمح من ملامح أمي.. تدريجيا تستقيم صورتها، فينبني في أعماقي بصيص من فرح .. ذكرى سعيدة.. أحلام داعبت وجداني في لحظات منفلتة من الزمن الجميل... ذلك الزمن البعيد/القريب، حين تسللت كلمات أمي إلى لب سمعي، دافئة، شفافة، ومترقرقة.. تستقر في بركة الذات، هادئة مطمئنة لتؤثثها بصفائها الأزلي الأثير.. تتسرب كلماتها عبر طلبة الأذن، ثم تسلك طريقها من خلال شعيرات دقيقة، تقتحم الخلايا.. تحنو عليها، فتدفعها بلطف نحو الباحة

السمعية.. هناك يتحفز الدماغ مبتهجا، يستقبلها كأجمل الهدايا المحتملة في مناسبة سعيدة. يترجمها إلى أجمل المعاني وأرقاها، منه تبعث إشارات إلى القلب، يفهم الرسالة، فيخفق جذلا، كعصفور فاجأته شساعة العالم بعد أن قضى في الأسر مدة طويلة، بعد ذلك تتواطأ جميع الحواس لتخزن العبارة في أكثر الأمكنة مناعة، في أحد رفوف الذاكرة. ينفتح الرف، يستقبلها بلطف ثم يدثرها برياش ناعم خوفا عليها من أي عطب محتمل. من مكانها هناك تطفق تغذيني بما يلزمني من طاقة وقوة.. حتما سأحتاجها في الأوقات الحرجة، حين تلعب الحياة مع لعبتها، وتهوي ثقتي بنفسي إلى الدرجة الصفر على سلمها الزئبقي. كلمات أمي كانت بسيطة وعميقة، وكأنها لم تنطبق بها أبدا، فقط ارتسمت على محياها، فبدت وكأنها أفصح عبارة تبتكرها اللغة، منذ أن فطن الإنسان إلى هذه الأداة الخطيرة. قالت أمي تخاطبي في لحظة لا أتذكر تفاصيلها" :أنت أجمل طفل في العالم. إياك أن تسنى ذلك. أو تسمح لشخص أن يقنعك بغير ذلك." ولم أنس ذلك أبدا.. بمرور الزمن ترسخت هذه الكلمات في ذهني، أمي ساعدتني على ذلك. كل ما تقوم به تجاهي يساهم بقسط وافر في تثبيتها في رف الذاكرة.

كلما تذكرتها يخفق قلبي، فأحس وكأنه عازم على مغادرة مكانه، يتوق إلى التحليق عاليا في الأجواء البعيدة.. على أساس هذه الكلمات أمضي في حياتي، معتزا بنفسي، نرجسيا، فخورا بكوني أجمل طفل في العالم . حتى المقارنة مع أقراني. لم تكن ذات جدوى. لا معنى لها ولا أحتاجها. يكفي أن أمي نطقت بها، وملأتني بظلال معانيها الجميلة.

صدمتي ستتحقق بعد وقت طويل، طويل جدا، حين تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أو المناورة بأن الحقيقة أبعد من أن تكون كذلك... ببساطة لست أجمل طفل في العالم. الحياة كانت كفيلة بأن توقظني من حلمي البديع، وتفتت إلى شظايا هذا الإحساس الذي أقام في الذات زمنا طويلا. استوطنني بإصرار حتى كدت أظنه خالدا لن تطيح به قسوة الحياة وصلفها امتصصت الصدمة. لم أحزن كثيرا، لأنني كنت قد اكتفيت، واكتسبت طرقا وأساليب للمراوغة.. كنت مفعما بذلك الإحساس الجميل، الذي منحني القوة والإصرار لأشق طريقي في دروب الحياة .. بفضل ذلك الإحساس كنت قد نلت الكثير الكثير .. ذلك الإحساس الذي زرعته في نفسي كلمات أمي ... رغم الحقيقة الجديدة الصادمة التي اكتشفتها متأخرا، ظلت حقيقة أمي مترسخة في مكان ما من الذهن والذاكرة والوجدان، عالقة في

أناي القديمة، تقاوم بإصرار المحارب، ولا يمكن لأحد أن يمحوها إلى الأبد.

لا زالت إلى اليوم تحكم حياتي، تختلس لها طريقا سريا، وتفرض نفسها على كل الحقائق الجديدة التي راكمتها الذات يوما بعد يوم. دوما أقنع نفسي بأنني كنت الأجمل سابقا. يشبه ذلك إلى حد بعيد ومن بعض الوجوه المتفائلة رئيس دولة سابقا أو سفيرا سابقا أو على الأقل مسؤولا سابقا، ألفظها في خفوت وخجل، لكنها تعطي مفعولها، وإن لم يكن ذلك بالشكل المتوقع.. حينما أجدني ضحية لظروف صعبة، تبعث على الحزن والإحباط، أرجع القهقرى، أفتش على كلمات أمي، حضنها الدافئ، ولا يخيب مسعاي أبدا، ما إن يحدث ذلك حتى ينبعث في نفسي فرح غير متوقع. يكفيني أن أتذكر أنني كنت أجمل طفل في العالم لتنبت الفرحة في أعماق أعماقي، وتشق طريقها بإصرار ومرونة نحو شفتيّ فتفترا بلطف عن ابتسامة تطيح بكل القلق الذي كان إلى فترة قريبة يحاصرني.. وتطوح به بعيدا حيث لا أمل له في العودة إلا بعد حين.

إنني أجمل طفل في العالم، وفضلا عن ذلك أتناول كل يوم برتقالا هشا، لطيفا ولذيذا، دلحا، يتدفق ماؤه في جسدي الضئيل ، بعد أن أضغط بأسناني الصغيرة على لبه المائل إلى

البياض. قبل أن أفعل ذلك كان يعجبني أن أتأمله. أمسك بين أناملي أصبعا من أصابعه، التي كانت ملتفة حول نفسها لتكون كويرة بديعة الصنع.. كانت تأسرني تلك الخيوط البيضاء الدقيقة، شديدة العطب، التي تنتشر على امتداد أصابع البرتقال. بصبر أنزعها خيطا، خيطا، والحبور لا يفارق وجهي الصغير.. ثم أشق البرتقالة إلى نصفين، أنزع الأصابع متتالية وبحرص أرتبها أمامي.. أتناول واحدة. أنظر إليه بفرح وتوقع واعد .. شبكة من العروق الدقيقة تتمدد متداخلة، تبدو كمتاهة لا توصل إلى أي مكان بعينه. أشق أصبعا أرى داخله حويصلات صغيرة مستقلة عن بعضها البعض، ومترابطة في الآن نفسه. تلك الحويصلات تمتلئ بالسائل الأصفر اللذيذ. أعض على نصف إصبع، يتحلب في فمي..تنتشر اللذة تدريجيا في كل جسدي.. يتنمل لساني للحظات ينقبض دماغي قليلا، ثم يرتخي فجأة. يشعرني ذلك بكثير من الانتشاء. أتوقف قليلا. أتلمظ مذاق البرتقال الوالغ في فرادته.. بعد حين أضيف النصف الآخر، ثم أجهز على البرتقالة كاملة، محافظا على نفس الطقوس، وكأنني أخشى أن تنفد الأصابع، غير أن ما تناولته يشعرني في نهاية المطاف بكثير من الامتلاء والنشوة.

ما حكاية البرتقال هاته؟ وحتى لا يذهب ذهنك أيها القارئ بعيدا، وتتوغل في التأويل الذي أحترز منه، أخبرك بأن أمي كانت تحمله إلي كل مساء حين تعود من المعمل الذي تشتغل فيه.. معمل تلفيف البرتقال. كانت تقضي فيه يومها كاملا، غير فترة استراحة قصيرة تتناول فيها طعام غذائها في الزوال. غالبا ما كنت أقف خارج البيت لأنتظر قدومها في المساء.من مكاني كنت أسمع رنين جرس الخروج، يخفق قلبي، وأنا أترقب ظهور النساء العاملات اللواتي يشتغلن مع أمي في نفس المعمل.. فجأة ينبثقن من البناية الضخمة بطواقمهن البرتقالية الزاهية، يتحركن ببطء نحو منازلهن، يبدون ككائنات غريبة مجهولة الاسم.. قطيع برتقالي يزحف، وكأنهن برتقال يتدحرج على الرصيف. برتقال كبير الحجم له أرجل وأيد لا يتبينها المرء إلا بصعوبة.. يفرحني هذا التدفق البرتقالي الجميل، أضمه بعيني الحالمتين. أتخيل برتقالتي وسطه تزحف نحو البيت بثبات، تحمل برتقالا ووعودا لا تخلف موعدها. وعود تنهمر في نعومة وسيولة مشتهاة. من الصعب تحديد طبيعتها، تتزاحم في الذهن والقلب، تتطاير كالفرشات المزركشة في فصل الربيع.. تصدر عن رفرفات أجنحتها الهشة نسائم لطيفة تداعب سحنتي، وكفعل السحر تماما. أتحول إلى إحدى هذه الفرشات،

أهب من مكاني، وقد نبت لي جناحان. أنتفض .. أطير، ألحق بالسرب كي أشاركه متعة التحليق إلى حين.

ما إن يصل لفيف العاملات البرتقاليات إلى مكان محدد، حتى أستفيق من شرودي، أغادر السرب والتحق بالبيت. هناك آوي إلى ركن مكين، احتل حيزا صغيرا. انتظر بصبر إطلالة أمي وحبة البرتقال.. تلج البيت، فيصبح للعالم طعم آخر.. تملأ المكان بحضورها الباذخ.. أشعر بالأمان، بالحب، وبالحياة في أرقى معانيها.. وأجمل من كل ذلك طعم البرتقال الذي يكتسحني على حين غرة. أتملى فيها بفرح، وهي تضع البرتقالة جانبا.. تتخلص من وزرتها البرتقالية ثم تشرع مباشرة في أشغال البيت، تنظف، تطبخ، ترتب الغرف البسيطة الواهنة. يعبق في البيت عبير وجودها الآسر. يصبح البيت أقوى.. أصلب.. أمتن .. بشغف أتتبع حركاتها.. كل ما تقوم به يأسرني.. أخشى أن تفوتني أي حركة، نأمة، التفاتة، أو نظرة شاردة.. حين تنتهي أو تكاد من أشغالها تلتفت إلي، وكأنها انتبهت فجأة لوجودي. تطلب مني أن أحضر محفظتي.. بكثير من الامتثال أستجيب.. في أعماقي أعرف أن ذلك يفرحها.

يااه..

كم كنت أحب أمي!!

أبدا لا أستطيع إغضابها. فإذا كانت قد همست لي ذات لحظة منفلتة من سياق الزمن بأنني أجمل طفل في العالم، وكان صدق كلامها يظهر جليا على ملامحها وهي تحملق في خلقتي الصغيرة، وتحدثني، فأنا كذلك كنت أراها أجمل امرأة في العالم، دون أن أقوى على التصريح بذلك.. الفرق الوحيد ربما يكمن في أنني لازلت أحمل هذا اليقين في قرارة نفسي. أبدا لم تفلح أي مقارنة مع نساء العالم، والتي قد يقوم بها الذهن حتى وإن لم أرغب في ذلك، أن تطيح بما وقر في القلب، وصدقه الإحساس، أو تؤثر فيه قيد أنملة.

أمي امرأة غير متعلمة، لكنها ذكية. كان ذكاؤها ولايزال يبهرني.. كان يعجبها أن تردد على مسامعي سورة "سبح" كاملة هكذا كانت تسميها، لأنها تبدأ بهذه الكلمة. فيما بعد عرفت أن لها اسما مختلفا. لكنني أنا الآخر احتفظت بتسمية أمي، ولا أستطيع تذكر التسمية الحقيقية مهما كددت الذهن. كانت تحفظها عن ظهر قلب وبلا أخطاء. هي بعض من الغنيمة التي ظفرت بها بعد أن قضت في الكتاب فترة قصيرة، وهي طفلة لا تزال. حفظتها مع بعض السور الأخرى، ثم اضطرت لمغادرته. أبدا لم تنسها، ظلت متمسكة بها، ترددها دائما. ربما تعوض بها حرمانها من التعلم.. أقول إن أمي ذكية، وأعني ذلك حقيقة،

وقد وظفت هذا الذكاء في تعليمي. حين تطلب مني إحضار محفظتي، تجلس بجانبي. أشرع في مراجعة دروسي، وحين أخطئ تنبهني للخطأ قائلة:

- لقد أخطأت، ليس هكذا.

- أنبهر..

- أشكك في كلامها قائلا:

إنك لا تحسنين القراءة. كيف عرفت ذلك.

تدعي العكس فتقرأ على سمعي جزءا من "سبح." ولكي تطيح بآخر بذرة شك لدي، وتبرهن على صحة كلامها، كانت تشير إلى كلمة ما، وتقرؤها بشكل سليم. أبهت. تتزعزع ثقتي بكونها أمية. فأشمر على ساعد الجد كي لا أخطئ ثانية.

مارست هذه الحيلة مفعولها علي لمدة طويلة ولم أكتشف الحقيقة عارية إلا بعد وقت طويل، حين تعقدت دروسي، ولم يعد ذكاء أمي يسعفها في التقاط كلمة من هنا وهناك، مستعينة في ذلك بأصبعي الذي أشير به إلى الكلمات التي أقرؤها.

من طبع الذاكرة أن تختار ما تشاء، وترمي في ظلمة النسيان ما لا ترغب فيه.. تفاجئني أمي- إلى يومنا هذا – بذكريات، لا أتذكر منها شيئا، رغم أنها تبدو ذكريات قوية

ومنسجمة مع مجريات حياتي وطبيعتي في التفكير والسلوك، وكان أحرى بالذاكرة الخائنة أن تحتفظ بها. غريب أمر هذه الذاكرة. لها منطقها الخاص، الذي يجعلنا بالرغم عنا خاضعين لها، تشكلنا كما تشتهي، أبدا لم أستوعب منطقها الغريب هذا، الذي لا تجدي معه حيلنا الصغيرة نفعا، ولا أوهامنا الكبيرة، وكأن لها حياتها الخاصة المستقلة عنا. إنها توظفنا كوسائل لا أقل ولا أكثر، لتلبي رغباتها الخاصة. هل للذاكرة رغبات؟ هذا ما أعتقده، بعد هذا الزمن الطويل الذي يفصلني عن طفولتي الزاخرة بالأحداث والسلوكات التي لا يمكن توقعها. اعتقد أننا لعبة الذاكرة الأثيرة. وفي الوقت الذي نعتقد فيه بأنها وسيلتنا في تأثيث الذهن بما نشتهيه، نتأكد تدريجيا بأننا لسنا سوى وسائل لها، توظفنا لكي تشحن نفسها بما يلائمها، ويستجيب لمنطقها الذي لا أكاد أفقه فيه شيئا.

من ذكرياتي الجميلة التي لا يمكن أبدا أن يطيح بها النسيان، وخاصة تلك المتعلقة بأمي والبرتقال احتفال عيد الشغل.. كانت ولا تزال بداية شهر ماي. أقصد الفاتح منه مناسبة كبيرة. يحتفل خلالها العمال بعيدهم العالمي. كانت بالفعل مناسبة مميزة بالنسبة لي، أنتظرها بكل شغف. تكرراها كل سنة لم يفقدها زخمها وقوة تأثيرها على نفسي. اعتادت

أمي أن تأخذني معها ذلك اليوم إلى مقر النقابة التي تنخرط فيها ..

في الصباح الباكر تحممني ثم تغير ملابسي. تحرص على أن أكون في أبهى صورة ممكنة، تختار لي أجمل ما أملك من ملابس، تضمخني بالعطر، ثم نغادر البيت، نتوجه نحو باب معمل تلفيف البرتقال. نقف هناك في انتظار أن يلتحق بنا باقي العمال الذين أكثرهم نساء. لأن الرجال يقتصر دورهم في الإشراف على العمل أو نقل بعض الحمولات الثقيلة، لذا فعددهم محدود، عكس النساء اللواتي يقمن بكل العمل الأساسي تقريبا .. تباعا تحضر العاملات يرافقهن أبناؤهن وبناتهن، وقد تزيوا بأزهى الملابس وأجملها، نتحلق هناك في أعداد تزداد تدريجيا مع مرور الوقت. تصل الحافلة، تبتلعنا في جوفها الهائل وسط تعليقات النساء الضاجة محاولات أن يخلقن جوا حميما ، يعد امتدادا للعمل الذي يحيين في كنفه باستمرار.. حافلتنا خاصة بالنساء والأطفال. فيما يركب الرجال حافلتهم الخاصة. يرتفع الصخب وسط الهيكل المعدني الضخم. وما إن تتحرك الحافلة حتى يتسيد الصمت للحظات وكأن الجميع أخذ بالمفاجأة، مفاجأة تحرك الحافلة بعد أن استبطؤوها، وظنوا أنها لن تتحرك أبدا. حين يستقر لهاث الحافلة تدب الحياة في جوفها

من جديد. تنطلق التعاليق الساخرة، وترتفع قهقهات النساء متجاوبة معها.أغلب التعاليق ينصب على المشرفين على العمل ومناديب العمل، بعد أن تأكدت النساء من تواطؤهم المفضوح مع المشرفين على العمل .كن يضحكن بُعيد كل تعليق مهما بدا غير مهم. فهن وحدهن يعرفن حق المعرفة ما يتحدثن به. لهن رموزهن الخاصة التي لا يفهمها غيرهن. تكفي إيماءة لتهتز الحافلة بالضحك، وسط استغرابنا نحن الصغار المأخوذين بهذا الجو غير المألوف.

كن يحفلن بنا نحن الصغار بشكل مبالغ فيه، حتى أن كل منهن تحرص على إمطارنا بالكلمات المحتفية الجميلة، تلك التي تحدثنا بها أمهاتنا حين نكون في البيت. كنت أنال قسطا كبيرا من العناق والتقبيل والتعاليق المحتفية، ربما تفوقي في دراستي هو السبب في ذلك. لأنهن كن يشرن إلى ذلك كثيرا في كلامهن. كل ذلك كان يرسخ في ذهني أنني حقا أجمل طفل في العالم. لم أكن أحفل بكون أمي تقوم بنفس الشيء تجاه الأطفال الآخرين المرافقين لأمهاتهم، فقط كنت أشعر بأنني مميز بشكل ما.

تصل الحافلة إلى مركز المدينة، فنجد المكان غاصا بالعمال والعاملات، يتزينون بأزياء مختلفة، تشي بنوع العمل

الذي يمتهنونه. ينتظمون في مجموعات بارزة، يحملون لافتات، أجهد الذهن في قراءة العبارات المخطوطة عليها. أقرأ بعضها ويستغلق علي بعضها الآخر .. الباعة المتجولون منتشرون في كل مكان. يبيعون البالونات الملونة، والحلويات، والفواكه الجافة والطرية، واللمجات السريعة، وغير ذلك من البضائع التي يحتاجها الصغار والكبار في ذلك اليوم المميز...تتنافس النساء في اقتناء كل شيء تقريبا. كل ما يصلح للشراء، ويقدمنه لنا نحن الصغار بكثير من الحبور .. تتكدس الحلويات في جيبي، وبالونة في يدي.. الحرارة ترتفع تدريجيا. تشتري لي أمي قبعة ورقية مزينة بشعار عيد العمال. أضعها على رأسي اتقاء للحرارة. شهر ماي غالبا ما يكون حارا، وشمسه تكون قريبة من الرؤوس، تلقي عليها بثقلها، وتصب عليها شلال أشعتها الحارقة. تنتظم الصفوف وتبدأ المسيرات.أحافظ على مكاني بجانب أمي، ألتصق بها حتى لا تتقاذفني الأمواج البشرية المتدفقة. تدريجيا ترتفع في الأجواء شعارات منددة ومطالبة ومستغيثة. يتقدم المتظاهرون ببطء تحيط بهم وتسيجهم البنايات الشاهقة على امتداد شوارع المدينة الواسعة. حركة السير متوقفة، فقط تحتل الأقدام الإسفلت ماضية في طريقها المحدد مسبقا. نصل إلى مكان محدد، نتوقف، نلتفت يسارا

حيث أقيمت منصة ظليلة على عجل. يجلس هناك مسؤولو النقابة الكبار. تخبرني أمي ببعض أسمائهم وخاصة اسم الزعيم الخالد الذي لم تعرف النقابة زعيما غيره. أحملق فيه وفي مرافقيه، يبدون لي من عالم مختلف . سيماء الرخاء تبدو على ملامحهم.يشبهون أولئك الناس الذين أراهم في الصور وعلى شاشة التلفزيون. أنيقين كانوا وبعيدين بشكل كبير... كانوا يتفاعلون مع شعاراتنا رغم أن بعضها تنتقد تواطؤهم مع أرباب العمل. أجهد نفسي من أجل رؤيتهم أكبر وقت ممكن. لا أفلح في ذلك.. سرعان ما يتحولون إلى أطياف متراقصة تترنح في الذاكرة، بعد أن ما يلتهمني السيل البشري الخارق، ويصبح أولئك الرجال أكثر بعدا، ثم يتحولون إلى مجرد ظلال باهتة لا تقوى على الصمود في الذاكرة سوى لحظات معدودة. في أحد الاحتفالات السنوية تلك أتذكر أنني حين وصلت إلى تلك المنصة ،وبذلت مجهودا كبيرا لكي أتطلع إلى تلك الوجوه البعيدة، القابعة هناك في الأعلى .. الحرارة المرتفعة كادت تخنقني والمأكولات الكثيرة التي أجهزت عليها بعد أن اقتنتها أمي وزميلاتها أثقلت على معدتي . في تلك اللحظة التي رفعت فيها بصري، لأحتضن به الرجال المتربعين على كراسيهم الظليلة، وهم يحيوننا بأياديهم النظيفة. جثم على نفسي

غثيان مفاجئ، أحسست بالدوار، ثم طفقت أفرغ ما استقر في معدتي. بعد التقيؤ أحسست بكثير من الوهن. لم تستطيع أمي الاستمرار في المسيرة.فانسلت منها، وقادتني نحو مكان ظليل. بحثت عن سقاء، فغسلت وجهي ويدي ورجلي، ثم نزعت قميصي ورشتني ببعض الماء، ثم ناولتني بعض الجرعات من الماء عببتها بلهفة.بعد ذلك توجهنا نحو الحافلة العمومية لتنقلنا إلى البيت.

أيام السبت كانت مميزة في حياتي وحياة أمي كذلك السبت هو اليوم الذي تتقاضى فيه أمي أجرتها بعد أسبوع كامل من العمل صباحا ومساء، وفي بعض الأحيان ليلا، ليكون الأحد يوم عطلة وراحة. كنت أعرف هذا الموعد جيدا، انتظره بشغف، خلال ذلك اليوم لا أفارق البيت أبدا. أترقب حضور أمي في كل لحظة وحين. قبل حلول اليوم الموعود كنت أتواطأ مع أمي، ونجلس جنبا إلى جنب، ونشرع في عد ساعات العمل التي اشتغلتها... بطاقتها البرتقالية كانت تساعدنا على ذلك. في أعلى البطاقة اسم أمي ولقبها بالحروف اللاتينية، ثم أيام الأسبوع باللغة الفرنسية....كل يوم تذيله خانات صغيرة تحدد الساعات. كنا نعرف كم تتقاضى أمي مقابل ساعة واحدة من العمل، فنقوم بعملية حسابية عسيرة لنعرف القدر الذي

ستحصل عليه في نهاية الأسبوع. نجمع عدد العلامات النائمة في حضن المربعات الصغيرة، ونكد الذهن في عمليات لا تنتهي لنحصل على الناتج الذي غالبا ما يكون غير دقيق، لأن المحاسب كان يخذلنا دوما، فتحصل أمي على أجرة أقل مما توقعناه. لم يكن ذلك ليمنع فرحتنا من الانطلاق من عقالها، لتنشر عبيرها في البيت بأكمله، والأهم من ذلك في قلبينا. كنا نضع الأوراق النقدية. والعملات المعدنية التي غالبا ما تكون لامعة وبراقة وكأنها خرجت للتو من أله صناعة النقود، التي لم أكن أقوى على تخليها. هذا الاحتفاء بأجرة أمي كان يفرحني كثيرا، عكس ما يحدث مع أبي تماما. كنت لا أرى نقوده أبدا ، في حين كانت أمي تشعر بسعادة لا تضاهى وهي تشركني في عد نقودها، وفي حسرتها كذلك، لأنها كانت دوما على اقتناع أن المحاسب يغش في الحساب، فما تحصل عليه يكون دوما أقل مما توقعته..

لم أكن أرى أبي ليلة السبت، لأنه ما إن يحصل على نقوده حتى يسلك طريقه نحو الحانة.. هناك يقضي وقتا طويلا، ولا يأتي إلا في وقت متأخر بعد أن يكون النوم قد سحبني نحو عوالمه الخاصة، حيث كانت لي دوما حياة أخرى موازية، تفتنني بقدرتها الفائقة على تحقيق جميع رغباتي المحبطة.

صباح الأحد لا يقل تميزا وأهمية عن ليلة السبت نستيقظ متأخرين قليلا. إنه يوم إجازة.. إفطارنا يكون متميزا عن باقي الأيام الأخرى، تعده أمي بكثير من العناية، لتجعل منه هدية صباحية جميلة. حين يتقدم النهار أجلس جانب أمي. تخرج النقود من الحافظة، وتمدني ببعضها، لكي أسدد ما في ذمتنا لبائع الدجاج ..كنت صغيرا جدا لم أتجاوز العاشرة من عمري، ومع ذلك كانت أمي تصر على أن أقوم بمثل هذه الأمور. كان ذلك يشعرني بفرح لا يوصف، آخذ النقود، أمضي حثيثا نحو "با مسعود" الذي كان يخصص جزءا من بيته لبيع الدجاج. كان رجلا دمث الخلق، دوما أراه مرتديا وزرة زرقاء، يثبت في جيبها العلوي قلما، ويضع في جيبها السفلي مذكرة لتسجيل ديون الزبناء. على رأسه تستوي عمامة تميل نحو الصفرة. كان الرجل يعاملني كشخص راشد. أبدا لم يخذلني يوما.. يكفي أن أقف أمامه لكي يهب نحوي هاشا باشا. ويسألني بحبور :

- ما وزن الدجاجة التي تريد ؟

- أنظر إلى أسفل خجلا، وأقول له:

- لم أحضر نقودا.

- يربت على رأسي متلطفا، ثم يرد علي قائلا:

- يا بني.

معاملاتك أحسن من معاملات الكبار. دائما تأتيني بالنقود في الموعد الذي تحدده. هيا خذ ما ترغب فيه.

كنت أحرص على أن أحمل له النقود كل يوم أحد، وبدون تأخير. أمي لم تكن تتلكأ في تسديد ما علينا من ديون، أما من جانبي كنت حريصا على أن لا تنسى ذلك أبدا. وحين يتعذر علينا الأداء، كنت أذهب حزينا إلى بيت "با مسعود" وأخبره بأنني لا نستطيع الدفع هذا الأسبوع. كان الرجل يرد علي بابتسامة محتفية ومتسامحة، ويخبرني بأن الأمر سيان، وأنه مستعد لإعطائي ما أريد، حتى يتوفر المال للتسديد.

الفصل الثاني

الحـب:

كانت أمي ولا تزال منبعا ثرا للعواطف. إنها شلال دافق من الأحاسيس الجميلة، ينهمر بغتة ودون سابق إنذار كلما حضرت في الذهن ذكرى من ذكرياتها. علمتني أمي أن أحب بلا حدود ودون أن أنتظر مقابلا لهذا الحب. منها تعلمت أن جائزة الحب الكبرى تكمن في ذلك الإحساس الجميل الذي يخترقنا بغتة و دون سابق إنذار، ويجعلنا ننظر إلى أنفسنا بشكل أفضل. الحب عطاء مستمر، دفقة من القلب تجعل العالم أرحب وأجمل وأرق. ليست كلمات أمي وحدها ما أشعل فتيل الحب في أعماق نفسي، فلم أعد قادرا على العيش بدونه، نظرات عينيها الجميلتين كذلك. لمساتها الحانية، ذكرياتها قبل الزواج، التي كانت تحكيها لي بدون تحفظ. تحكي لي كل شيء، فأشعر بأنها كانت بحق سعيدة.. يبدو ذلك على كل ملامحها وحركاتها. كانت تحكيها وكأنها تعيشها من جديد.لازالت إلى يومنا هذا تأسرني تلك الذكريات البعيدة. كانت أمي تنفلت من رقابة والديها وتذهب إلى السينما.. سينما "فيردان" بالتحديد في مركز

المدينة ، التي لا تبعد كثيرا عن مقر سكنى العائلة في المدينة القديمة. أقدر الآن أنها لم تكن تذهب وحدها، لكنني لا أجد الجرأة للتفكير في ذلك. بالطبع لم تكن ترافق أبي، لأنها لم تكن قد تعرفت عليه بعد، أعرف أنه كان يعيش في البادية، وأكاد أجزم أن قدميه لم تطآ أرض قاعة سينمائية إلى يومنا هذا، رغم أنه قضى في المدينة أكثر سنوات عمره، وهاجر إلى فرنسا في فترات متباعدة، و قضى هناك سنوات عدة، لم تؤهله للتكيف مع أجوائها و لا استطاع تعلم لغتها.

كانت أمي تحدثني بشغف عن الأفلام المصرية التي كانت تأسرها، وسهرات أم كلثوم، التي كان لها صيت واسع آنذاك ، حتى و إن كان سهراتها غير مباشرة و لا حية.

ربما تكون هذه الأفلام و تلك السهرات مسؤولة بنصيب عن الرومانسية التي تطفح بها عينا أمي وابتسامتها الآسرة حين تحدثني. هذه الابتسامة بالتحديد كانت تسلب إرادتي، وتجعلني متعلقا بوجه أمي لمدة طويلة، دون أن يجد الملل طريقه إلى نفسي.

حين تستحم أمي في البيت كانت تدخلني معها إلى الحمام كنت أسترق النظر إليها متجردة من ملابسها، فتأمرني مبتسمة ومفتعلة الغضب بأن لا أتطلع إليها. أستجيب في خجل. كان

عريها بالنسبة لي عاديا، وكأن جسدها امتداد لجسدي. لكن بعد فترة من الزمن بدأت ألحظ الاختلافات بين جسدينا، وكان ذلك يربكني. حينذاك بالضبط توقفت أمي عن كشف جسدها أمامي. لا أدري كيف ولم حدث ذلك؟

لكنني أتذكر جيدا أن الأمرين تزامنا في حدوثهما بشكل مربك، ومحير أقصد اكتشافي للاختلافات بين جسدينا وانقطاع أمي عن كشف جسدها أمامي.. خلق ذلك في نفسي فجوة، سأسعى بعد ذلك جاهدا لملئها. هل امتلأت؟ لست أدري.

في لحظات معينة أدعي ذلك وأشعر به، بل ويترسخ هذا الاعتقاد في نفسي وفي لحظات أخرى يتملكني إحساس يدنو من اليقين بأن تلك الفجوة لم تمتلئ أبدا، ولا يمكنها ذلك، بل زادت بمرور الزمن اتساعا، حتى أضحت غير قابلة للإغلاق إلى أبد الآبدين.

في مرحلة معينة من حياتي انتبهت إلى أن أمي تلعب معي لعبة مكشوفة، ترسخ في الذهن و القلب أنها أم استثنائية بكل المقاييس ، و تحبني بشكل لا مثيل له..

كانت تستدرج الفتيات من سني للانتباه إلي والاهتمام بي. تغمرهن بالعطايا حتى يمكثن في بيتنا ويملن إلي. من هؤلاء الفتيات أذكر واحدة بشكل جيد. كانت جميلة وممتلئة القوام.

وجهها مدور وعيناها واسعتان، لها غمازتان بديعتان وشفتان تزينهما ابتسامة طبيعية. جميع الأطفال كانوا يسعون جاهدين للظفر بلحظات "لعب" معها. كانت أمها تشتغل في نفس المعمل الذي تشتغل فيه أمي.

لم نكن نعرف لها أبا، و لا أحد يسأل عنه، و لا حاجة لوجوده، حتى لا ينغص على أحد متعه الصغيرة التي كانت الصغيرة تبرع في تقديمها.

كانت صبية واعدة بحق، ويبدو أنها تعرف إمكانياتها جيدا، لذا لم يكن من السهل استمالتها. بتواطؤ غير مكشوف مع أمي أصبحت تلك الفتاة المشتهاة من نصيبي، على الأقل لزمن محدد، كانت تأتي إلى بيتنا، حاملة غوايتها الصغيرة، تتناول معنا الطعام ثم تمنحني أمي وإياها بعض السنتيمات، ونمضي في طريقنا إلى المدرسة. كان يعجبني أن أمسك بيدها بين لحظة وأخرى. أذكر أنها رغم حداثة سنها كانت تفهم أكثر مني في أمور الحب.

في لحظات معينة تتخلص من يدي وتبدو شرسة ممانعة وعنيدة، خاصة في الأماكن العامة الآهلة بالسكان، أما حين نكون في البيت منفردين فكانت تسمح لي بلمسها وأحيانا بتقبيلها، بعد أن تبتزني، وتساومني في شيء ما أملكه. في

فترات متباعدة كنا نأوي إلى سرير أمي ونندس تحت الغطاء. ونظل متلاصقين لفترة من الزمن، تبعث في النفس الدفء والخدر، تلفحنا الحرارة المتولدة عن جسدينا الغضين، كانت الفتاة عذبة، هشة وطرية... تشعرني بأنني في مكان طبيعي جدا، مكان دافئ وناعم. أحس أن هذا المكان كان موطني منذ زمن بعيد، وقد غادرته مرغما، وإذا بي أعود إلى حضنه بعد طول غياب.. إنه جنتي المفقودة. ياه كم كانت لذيذة تلك الطفلة. كانت تبدو للجميع مشروع عاهرة واعدة، وبالتأكيد ستكون عاهرة ناجحة لو تحققت تلك الرؤيا المتبصرة، من يدري؟ ربما تكون قد تحققت، لكن لحد علمي لا وجود لعاهرة ناجحة. العاهرة دوما تعبير عن فشل إنساني كبير، أن تمنح المرأة جسدها بمقابل لعدة شركاء محتملين لا تجمع بينها وبينهم أي عاطفة، لا يمكن أن يكون إلا قمة البؤس والغبن..

للبرتقال موسم محدد، يبدأ خريفا، وينتهي مع نهاية فصل الربيع، بحلول التباشير الأولى لفصل الصيف يبدأ البرتقال في التناقص في المعمل و في البيت حتى يختفي تماما.

كل مناطق المغرب تقريبا ترسل برتقالها إلى الدار البيضاء، يؤهلها لذلك ميناؤها الكبير، الذي تصدر منه نحو بلدان العالم المختلفة. بحكم عمل أمي في التلفيف كنت

أستطيع التمييز بين برتقال منطقة وأخرى. كان برتقال مدينة بركان مميزا شكلا ومذاقا.. كان الموسم غالبا يفتتح ب"الكليمنتين" وينتهي ب"النافيل" مرورا ب"السنغين" المميز بلونه الدموي الأحمر" .. الكلمنتين" صغير الحجم وكثير الهشاشة. يشبه إلى حد بعيد تلك الفتاة التي تحدثت عنها في السطور السابقة. كنا - نحن الصغار - نبرع في التهامه، لأنه سهل التقشير، ولذته لا تقاوم. فيما كان "النافيل" ضخما، يختلف حجمه حسب المنطقة التي يأتي منه، وحسب الزمن الذي يجنى فيه. كنت أعرف كذلك أسماء الدول التي تصدر إليها كميات كبيرة من البرتقال.. علقت بالذهن روسيا، التي لم تكن تطلب الجودة فيما تشتريه، بقدر ما كانت تهتم بالكمية.. بعد هذا الوقت الطويل أفهم لماذا كانت تفعل. إنه النظام الاشتراكي، الذي كان ينأى بنفسه عن الكماليات حتى لا يتهم بالعادات البرجوازية "المقيتة." كان موسم تصدير البرتقال إلى روسيا يريح العاملات، فمعايير اختيار حبات البرتقال تصبح أقل صرامة. عكس ما يحدث عندما يتعلق الأمر بشحنات موجهة إلى إحدى الدول الرأسمالية الغنية كألمانيا الغربية وفرنسا وانجلترا، إذ يصبح العمل جحيما والتدقيق والمراقبة صارمين، فحبة واحدة غير منتقاة قد تتسبب في رفض الشحنة كاملة وغالبا ما

تكون العواقب وخيمة على العاملات ، اللواتي يتم توقيفهن عن العمل لمدد متفاوتة حسب درجة الخطأ المرتكب.

في الصيف تكبر متعتي، تتسع في كل الجهات لتشمل أحلامي، بل تتجاوزها. أكون وأمي عاطلين. تتوقف الدراسة بتوقف موسوم البرتقال تقريبا.. يصبح لدينا وفرة من الوقت الزائد عن اللزوم. وقت فراغ متواصل، كل يملأه بطريقته.. كانت حياتي آنذاك متمركزة حول اللعب والمتعة. كنت ألعب بتفان. أمارسه بكل كياني. أنتقل من لعبة إلى أخرى، وكانت أمي تتواطأ معي في ممارسة هذه الألعاب. جميع الألعاب التي تستهويني يكون لأمي نصيب فيها. أول طائرة ورقية، وأول دراجة قصبية، وأول سيف خشبي وأول قيثارة من علب الزيت الفارغة. كانت كلها من صنع أمي. كنت البكر، ولا إخوة لي من الذكور، و لي أخت واحدة تصغر بثلاث سنوات.. فكان يحرمني ذلك من أخ أكبر يحميني من اعتداء أقراني ، أو يساعدني في صنع ألعابي ، لكنه من ناحية أخرى كان ذلك يستهويني لأن الإخوة الكبار غالبا ما يكونون مستبدين و يمنعون عن إخوتهم حتى الحق في اللعب أو الخروج من البيت في كثير من الأحيان.

ذات أمسية نظرت بحسرة إلى الأطفال من أقراني، وهم يستمتعون بتحليق طائراتهم الورقية، الحقيقة أنها ليست

ورقية رغم شيوع التسمية ، بل تصنع من الأكياس البلاستيكية الشفافة، فعدت إلى أمي باكيا بعد أن أعيتني الحيلة في الحصول على واحدة. شمرت أمي على ساعد الجد، أحضرت اللوازم، وشرعت أمام عيني المندهشتين في صنع الطائرة. أمام ذهولي بدأت الطائرة تتخذ شكلها المتنامي، ثم ما لبثت أن أصبحت طائرة حقيقية، بعد أن اكتمل مربعها الآسر، الذي يتوسطه قصبتان رفيعتان تتقاطعان في الوسط.

ثم بحثت أمي عن قطعة قماش، قصتها لتصنع منها شريطا دقيقا، ألصقته في مؤخرة الطائرة، ليكون بمثابة ذيل يساعدها على تحقيق التوازن عند الطيران.

بعد ذلك أخذت الخيط النيلوني الطويل، وألصقته بمقدمة الطائرة، ثم قدمتها لي بكل سعادة العالم. أمسكت أكرة الخيط النيلوني بيد والطائرة بيد أخرى، ثم بدأت في محاولاتي المتكررة واليائسة في جعلها تطير، كي تعانق الفضاء الشاسع. شرعت أركض مقلدا الأطفال، ثم أطلقها من يدي. لكن كل محاولاتي باءت بالفشل الذريع.. كنت أتصبب عرقا وغيظا بعد كل محاولة فاشلة، ثم ما لبثت الدموع أن انسلت من حدقتي، وانخرطت في نشيج متواصل.. اقتعدت الثرى وأنا أبكي، حاضنا طائرتي البائسة. تقدمت أمي نحوي بخطوات واثقة.أخذت مني

الطائرة والأكرة، ثم طفقت تركض محاولة أن يكون ركضها عكس اتجاه الريح كما علمتني فيما بعد. وفجأة أمام انبهاري وفرحتي العارمة طارت الطائرة. لقد عانقت الأجواء المفتوحة، انتفضت من مكاني، وجريت نحو أمي وبصري متعلق بالطائرة. أتعثر في خطواتي، وجهتي أمي التي يبدو أنها أثارت انتباه الناس وهي تركض بطائرتها الورقية. وكان ذلك بالفعل ما حدث، لأن الجيران تحدثوا لوقت طويل عن هذا الحدث الطريف، كما سأعرف لاحقا. ناولتني أمي أكرة الخيط النيلوني وحذرتني من أطلاق المزيد من الخيط حتى لا ينقطع، وتضيع الطائرة. متوترا وفرحا أمسكت بالخيط.. قلبي يخفق بشدة، وعقلي الصغير يهيم في عالم جديد لا يمكن تحديد معالمه. عالم تصنعه أمي بقدرتها وكفاءتها وحبها، وأدخله أنا راضيا مرضيا، فرحا ومنتشيا.. تركتني أمي وعادت إلى البيت لإنجاز أشغالها المنزلية. وبقيت هناك وحدي أتملى في تلك الطائرة المحلقة في الفضاء، وفي كل لحظة أفرج عن قطعة من الخيط النيلوني، فتتوغل الطائرة عميقا في الأجواء وتصبح صورتها أصغر، بينما تتعملق الفرحة في وجداني بشكل متنام وسريع. و استمررت في ذلك الوضع السحري الرائع و الفرحة تكاد تفتح قفص جمجمتي و تطير عقلي .. بيد أن في لحظة فارقة ستنقلب

فرحتي إلى مأساة لا أعرف كيف حدث ذلك، لكنه حدث أمام عيني الذاهلتين. تسرب الخيط من يدي ..انبتر، وظلت الأكرة في راحتي. وإذا بالطائرة الورقية تترنح في الهواء وتمضي بعيدا إلى وجهة لا أعلم عنها شيئا. يائسا ركضت وراءها، محاولا استرجاعها، لكن هيهات، لقد اختفت نهائيا. رفعت بصري المتحسر باحثا عن أثر لها، فلم أظفر بشيء. انخرطت في بكاء مرير وكأن الطائرة أخذت معها كل الأشياء الجميلة التي كانت تؤثث أحاسيسي إلى وقت قريب. عدت إلى البيت أجرجر خيبتي هرعت نحوي أمي فتسألني:

- ماذا بك أين طائرتك؟

- لم أحر جوابا فقط كنت أختنق من شدة النشيج. أخذتني من يدي وسحبتني وراءها نحو المغسل. رشت الماء على وجهي، ونظفت أنفي من المخاط الذي اختلط بالدموع.. هدأت قليلا. سألتني من جديد:

- أين الطائرة؟ هل سلبك إياها أحد؟.

عدت للنشيج من جديد، لكن بحدة أقل.. أخبرتها بما حدث قائلا:

- لقد انفلتت مني، واختفت.

طمأنتني أمي واعدة إياي بأنها ستصنع لي غيرها فعادت الفرحة والطمأنينة المسلوبتين إلى نفسي.

ما حدث لي من الطائرة تكرر بصيغ مختلفة مع لعب أخرى، كانت أمي تصنعها لي، ألهو بها لفترة، ثم سرعان ما تنعطب، فتصنع لي غيرها كل ألعابي تقريبا في مرحلة ما من حياتي كانت عليها بصمة أمي، لذا حين أتذكرها الآن، ترتبط ذكراها بها، فيزيد تعلقي بها، وحبي لها.

في مرحلة ما من حياتي انشغلت بالمرآة أصبحت مدمنا عليها. أنظر إلى صورتي المنعكسة عليها بشكل متكرر. قبل ذلك كانت أمي مرآتي. كلماتها وابتسامتها كانت تكفياني لأمتلئ بالرضا عن النفس، وأشعر أن العالم أنشئ خصيصا من أجلي.. لي وحدي، وأن الآخرين مجرد كيانات بلا عمق ولاهوية، إنها هنا فقط لتؤنسني حتى لا أجد نفسي وحيدا. كنت أشعر بأن كل ما يحدث في محيطي يعنيني بشكل من الأشكال. نظرات أمي كانت تترسخ في ذهني ووجداني هذا اليقين. المرآة كانت حاسمة في مسار حياتي. إنها جعلتني أتعرف على نفسي بشكل مختلف، أظنه أكثر موضوعية وحيادية. وأكثر من ذلك دفعتني للمقارنة بيني وبين باقي أقراني. حقيقة أحبطني ذلك. حاولت أمي أن تخفف من هذا الإحباط بطريقتها، كانت تفاجئني، وتقف

بجانبي، تقترب مني تنظر إلى صورتي في المرآة، ثم تردد مبتهجة:

- يحفظك الله من عين الحسد والسوء.

لم أكن أستوعب جيدا كل ما تتلفظ به، لكنني كنت متأكدا بأنه الأمر - كالعادة- في صالحي.

كثيرا ما كانت تمسك بالمشط، وتشرع في ترجيل شعري، ثم تعكف على هندامي لترتبه.. كنت أقاوم قليلا أفعالها هذه. لقد كانت تخجلني، لكنها لم تكن ترعوي أبدا، ولتعزز ثقتي بنفسي كانت دوما تردد على مسمعي:

كم هي محظوظة الفتاة التي ستكون من نصيبك!

أخجل أتلعثم، ثم أخاطبها متوسلا:

- كفي يا أمي عن هذا الكلام!

تبتسم لي ابتسامتها الآسر تقبلني، وتنصرف، فيما أظل معلقا أمام المرآة، أحاول أن أظفر منها بأجمل صورة يمكنها أن تجود بها علي، لكي أخزنها في الذاكرة وعلى أساسها أتصرف مع الناس من حولي. أحاول تجريب كل الوضعيات المحتملة، لكن المرآة تظل على عنادها، لا تمنحني الصورة التي كنت قد كونتها عن نفسي قبل أن أصطدم بصلابتها. أغادرها محبطا وحزينا، لكن كلمات أمي سرعان ما تتغلب، أتقهقر نحوها

فتمدني ببعض القوة والطاقة، كي أستمر في درب الحياة الطويل والقاسي.

حيل أمي في استقطاب الفتيات للاهتمام بي لم تعد نافعة أصبحت أكبر من أن أتماهى معها وأشاركها في لعبتها الصغيرة تلك. كان علي أن أشق طريقي بنفسي بعيدا عن الاتكال على أمي. جربت ذلك فلم أفلح. المرآة خذلتني فزعزعت ثقتي بنفسي، لا أدري لم ترسخ في ذهني أن أمي شعرت بما يمور في داخلي من أحاسيس متناقضة وإحباط. فحاولت تخليصي من ذلك بطريقتها الخاصة.

كانت لأمي زميلة في العمل، تسكن بعيدا عنا في حي لا يمكن الوصول إليه إلا عبر الحافلة وبما أن المعمل كان يوجد بالقرب من بيتنا، ولا يبعد سوى مسافة قصيرة لا تتجاوز الكيلومتر الواحد، فلقد كانت تدعو زميلتها لتناول طعام الغذاء في بيتنا. كانت المرأة مختلفة، تبدو متأنقة بشكل كبير، تزين وجهها ببهرجة واضحة، استرقت النظر إليها فأعجبني اختلافها.. تعودت أن أرى أمي بدون مساحيق التجميل، فقط كانت تكحل عينيها، وتخضب يديها ورجليها بالحناء.. بالطبع لم أبالغ في الاهتمام بالمرأة، فبقدر ما أعجبتني، بعثت في نفسي بعض الرهبة، لذا سرعان ما تجاهلتها وانغمست في ذاتي، انشغلت

بوضعي الجديد المربك الذي هيمن على تفكيري.. لم أعد كما كنت من قبل. أشياء عميقة تتحول بعمق في داخلي، شخص آخر أخذ ينمو تدريجيا في أعماقي، عنيدا، غاضبا وحزينا، ويشتاق إلى الحب. لم يعد حب أمي يكفيني، أحسست بأنه شيء محرم وممنوع، ولا يليق بي، بالنتيجة أصبحت طفلا مهموما. لم تفلح محاولات أمي في التخفيف عني، بل أصبحت تزيد من إرباكي.. فأتمرد عليها في صمت دون أن أقوى على إعلان ذلك.

زلزال مدمر سيرج حياتي في تلك الأثناء، وتنقلب رأسا على عقب زارتنا المرأة زميلة أمي في العمل يوم الأحد. كانت برفقتها طفلة تصغرني بسنتين تقريبا. فتاة جميلة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. شعرها حريري لا يتوقف عن الحركة، يداعب بلطف كتفيها الضئيلين، وعلى جبينها اللامع تتساقط خصلات منه تحجب عينيها للحظات، ثم سرعان ما تمتد لها يدها لتعيدها إلى مكانها الطبيعي. عيناها باسمتان دوما، يظللهما حاجبان رفيعان شديدا السواد. شفتاها حمراوان بشكل لا يصدق، وكأنها تضع أحمر شفاه، لكنها لم تكن تضعه لحداثة سنها. جمالها طبيعي وخارق. حين وقع بصري عليها أحسست بالدوار، لقد كانت تجسيدا لما أحلم به، بل تجاوزت الحلم بدرجات. إنها فتاة لا تصدق، تملكتني بسطوتها الكاسحة. أعدت

أمي الشاي، وقدمت لضيفتيها بعض الفواكه الجافة والخبز والزبدة والمربى. قريبا بعيدا جلست.

أحاول أن أكون ظاهرا للعيان إلى حدود التجلي وفي نفس الوقت تتملكني رغبة صادقة في الاختفاء، حتى لا أكون محط نظرات تلك العينين الجميلتين، أمي ذكية، فطنة، تنتبه إلى ما حولها بسرعة، وتكون صورة شاملة عن الموقف، ثم لا تلبث أن تتخذ قرارا، وتنفذه في الحال. لم يفتها ما يعتمل في داخلي، فوطدت العزم على التصرف.

تشعب الحديث بين أمي وزميلتها، وفي لحظة آسرة، لا تتكرر إلا في الأحلام المتواطئة، تلتفت أمي نحو الفتاة، وتقول لها بلهجة واثقة ومطمئنة وعادية جدا:

ستكونين إن شاء الله زوجة لابني.

تتخضب وجنتا الفتاة بحمرة الخجل

أسترق النظر إليها, ثم أذوب أنا الأخر في بحيرة الخجل. تلتفت أمي نحو والدة الفتاة، ثم تغمز إليها بعينيها, فتؤكد هذه الأخيرة كلامها مثنية عليه.

ما هذا الذي يحدث؟ ما أروعك يا أمي لا تخذلينني أبدا.

مرتبكا كنت أنتظر الخطوة التالية التي ستقدم عليها. أعرف أن مفاجآتها لا تنتهي، وهي غالبا ما تكون في صالحي.

تناولنا بعض المكسرات، وارتشفنا كؤوس الشاي الساخن، الذي تفوح منه رائحة النعناع قوية ونفاذة.

في لحظة ما التفتت إلي أمي مستغربة، ثم خاطبتني قائلة:

ماذا تفعل هنا؟ اذهب إلى الخارج، ودعنا نتحدث في حرية.

ارتبكت

قمت من مكاني، ثم خطوت متعثرا نحو الباب ،وقبل أن أبلغه, جاءني صوت أمي المتواطئ :

خذ معك "مريم" وقوما بجولة في الشاطئ.

لم يكن البحر بعيدا عن بيتنا من السطح ترى زرقته الممتدة, وفي بعض الأحيان خاصة في فصل الشتاء كان هديره المتواصل يصل إلى أسماعنا.. في نفسي قلت "أمي قادرة على كل شيء وبدونها لا أساوي أي شيء..." ابتهجت الفتاة بالاقتراح. قامت من مكانها مستعدة للذهاب، نظرت إليها أمها نظرة معبرة، لكنها لم تمنعها . فقط حذرتها قائلة:

- إياك أن تسبحي. فقط اجلسي على الرمال وتفرجي على البحر.

أجابت الفتاة أمها:

- نعم سأفعل.

وقبل أن نغادر البيت وجهت الأم كلامها إلي قائلة:

- انتبه إليها. إنها تحت مسؤوليتك.

ردت عليها أمي مؤكدة ومحتفية:

-لا تخافي شيئا . ابني عاقل وناضج، سيرعاها جيدا.

في طريقنا إلى الشاطئ لم نتحدث كنا نمضي بخطوات حثيثة. مررنا عبر ممرات ضيقة كنا نتصادم في مشينا، ثم نبتعد عن بعضنا البعض. وصلنا إلى الشاطئ . نزعنا أحديتنا، توغلنا في الرمال الناعمة. لم تكن سخونتها لاذعة فتحملناها، لكن سرعان ما بدأنا نحس بحرارتها تكوي باطن أقدامنا. اشتكت مريم من ذلك، فطلبت منها أن تركض لتتحمل الحرارة. فانخرطنا كلينا في الجري، حتى بلغنا الرمال الندية، المبللة ببقايا الموج.

هناك اتخذنا لنا مكانا جلسنا متقاربين نحملق في الامتداد الأزرق الجميل. كانت بعض النوارس تحلق قريبة من صفحة الماء, بدت لي خفيفة في طيرانها، وكأنها بذلك تعبر عن سعادتها. لم أستطع أن أتكلم أكثر مع الفتاة، فقط كنت مكتفيا بالجلوس بالقرب منها.كانت الفتاة هادئة، وجميلة، وناعمة. استرقت النظر إليها مرات عدة، وحين تبادلني النظر كنت ألجم بصري وأهيم في زرقة البحر. أخبرتها بذلك، فلم تجبني بشيء.

لكنني أحسست بأن قراري استهواها. ازدادت عيناها الباسمتين إشراقا.

نزعت ملابسي بسرعة، وقصدت المياه ركضا أنوي إبهار الفتاة بإتقاني للعوم. ارتميت في أحضان المياه الباردة. أحسست بقشعريرة خفيفة تلسعني. لم أحفل بذلك إذ سرعان ما تكيف جسدي مع البرودة . سبحت في اتجاهات متعددة، أغطس لفترة تحت الماء وأتقدم سباحة ولا أرفع رأسي إلا بعد وقت طويل. بعد حين غادرت المياه. قصدت الفتاة، التي ظلت ملازمة مكانها، وكأن وصية أمها تكبلها. تمددت بجانبها ثم سرعان ما انتفضت واقفا وتوجهت نحو الرمال الساخنة. انبطحت هناك لأنعش جسدي بحرارتها. كنت أعتقد أن الفتاة ستتبعني، لكنها لم تفعل. بعد أن يئست من استجابتها، غادرت مكاني الساخن وتوجهت نحوها . جلست بجانبها، ثم ما لبثت أن حرضتها قائلا:

- هل تسبحين؟

بدون تردد أجابتني.

- لا أحسن السباحة.

أتاح لي كلامها استعراض مهارتي في السباحة فأجبتها سأعلمك.

صمتت قليلا ثم قالت:

- أمي ستغضب إن علمت بذلك.

أردفت معقبا:

- لن نخبرها بشيء .

بدا الاضطراب على سحنتها لكن يبدو أنها بسرعة حسمت أمرها فقالت :

- ليس لدي لباس السباحة.

رددت عليها مشجعا:

ليس ضروريا، يمكنك أن تسبحي بملابسك الداخلية.

الحقيقة لم أصدق أنها ستستجيب بهذه السهولة إذ سرعان ما شرعت تتخلص من ملابسها. كانت بيضاء بشكل غريب، وكأنها قطعة من الثلج صقيلة وناعمة. في جسمها شعيرات بيضاء خفيفة لاتكاد ترى. وعلى صدرها حبتان صغيرتان لا تكادان تعلنان عن نفسيهما. نحيفة كانت بشكل ملحوظ. تقدمنا نحو المياه. بحثنا عن بركة صغيرة بين الصخور، فوجدنا ضالتنا سريعا. قلت لها:

- هنا يمكنك السباحة دون خوف.

غمست قدميها الصغيرتين في الماء كانت مترددة وشيء من الوجل يداعب ملامحها. ارتميت في البركة، فشجعها ذلك لانغماس رويدا رويدا في الماء. ثم بدأنا نسبح معا. لكنها بدافع

الإحساس بالذنب بسبب مخالفتها لوصية أمها، سرعان ما طلبت مني أن نغادر البركة، وهي تقول لي:

- إذا علمت أمي بالأمر ستقتلني.

استجبت لها دون تردد غادرنا البركة، ثم طلبت منها أن تفعل مثلي وتقتعد الرمال الساخنة ليجف تبّانها. انصاعت لنصيحتي، فما لبث أن جف جسدانا فارتدينا ملابسنا، وعدنا إلى البيت وكأن شيئا لم يحدث أبدا.

تكررت زيارات الفتاة وأمها لبيتنا في أيام بعينها كانت الأم تحضر ابنتها إلى البيت قبل أن تذهب رفقة أمي إلى العمل، كان هذا التصرف منها يدل على مدى العلاقة التي توطدت بينها وبين أمي .. أصبحنا بمعنى آخر عائلة واحدة. نحن كذلك كنا نزورهما ونقضي اليوم بكامله في ضيافتهما. بقاء الفتاة في بيتنا كان يتيح لي الانفراد بها لمدة طويلة، فطنت إلى أن الفتاة يعجبها ذلك وتنتظره بشوق. تصرفاتها وسحنة وجهها المنبسطة كانت تدلان على ذلك. لم تكن ترفض لي طلبا. في ما بعد استهوتنا لعبة مميزة، نندس تحت الفراش، ونلتصق ببعضنا البعض.أقصد ألتصق بها من الخلف لمدة طويلة. كان ذلك يسعدني كثيرا. بعد زمن طويل من ذلك قرأت قصة قصيرة لكاتب من أمريكا اللاتينية، تصور بمهارة هذه الطريقة

في احتضان المرأة، والنوم التصاقا بظهرها. شبه ذلك بركوب دراجة نارية تقودها امرأة، والرجل يقبع خلفها. تمضي الدراجة في طريقها بسرعة مفرطة، فيختلج الرجل إحساس جميل وباذخ بالمتعة، متعة السرعة، متعة ظهر المرأة الطري في الوقت الذي تداعب فيه الريح وجهه فيما تنفلت خصلات شعر المرأة لتنتشر على امتداد صفحة وجهه.. تدغدغ لمساتها بوخزات لذيذة وملمس ناعم كل عضو من محياه.

أعجبتني القصة قرأتها مرارا وفي كل مرة أشعر بأن القصة كتبت خصيصا للتعبير عن مدى الانتشاء الذي كنت أحس به وأنا ألتصق بظهر الفتاة.

هذه المرحلة من حياتي أكسبتني هدنة مع نفسي ومع الحياة من حولي، كنت أعرف أن ذلك لن يدوم طويلا وسيتعين على أن أشق طريق الحب الصعب بنفسي دون مساعدة من أمي تأكدت أن تدخلها لن يكون مجديا في كل مرة. حيلها الصغير ستفقد تدريجيا مفعولها. أنا أكبر، وتكبر معي أناي. تحول عميق يطالني داخليا وخارجيا. كان علي أن أكف عن الاستعانة بأمي. ببساطة كنت إلى أهفو حب من عرق جيني. أي بدون وسائط. حب يتمتع بشفافية مطلقة و لا خداع فيه.. إلى متى سأعتمد على أمي في ذلك ، فلا يمكن مثلا لأمي أن ترافقني إلى

المؤسسة التي أتلقى فيها دروسي، وتتدخل لتيسر أموري هناك. بنات حينا أصبحن لا يلبين طموحي، الذي كبر بعد أن التحقت بالمرحلة الإعدادية. هناك حيث تدرس فتيات من طبقات اجتماعية مختلفة. لأول مرة أجد نفسي أمام فتيات من طينة أخرى. فتيات منعمات، ينقلهن آباؤهن بالسيارة حتى باب المؤسسة. رؤيتهن عن قرب تشبه الحلم. كن بالنسبة لي بعيدات ومستحيلات . لكن النفس تحن إلى إحداهن. كنت أتحسر وأنا أسترق النظر إليهن بعينين بائستين. في تلك الفترة اكتشفت الروايات الرومانسية، فعكفت على قراءتها، ففتحت لي طريقا جديدا نحو الحب بمعناه المثالي. خائفا كنت من الص، فلم أتجرأ على الدنو من هؤلاء الفتيات المنعمات، فطفقت أقرأ وأقرأ، بنهم لا يصدق. كنت أبرع في تقمص شخصيات الروايات والتماهي معها. كل رواية تضرب لي موعدا مع تجربة جديدة، أحياها بكل كياني. أنتقي من فتيات المؤسسة إحدى الفتيات وأشركها في المغامرة. أحدثها بحديث البطل، وأتلقى منها الرد. أهيم معها على وجهي تحت ضوء القمر الشاحب. نقصد معا شجرة سنديان ضخمة أو شجرة زيزفون، نجلس تحتها متكئين على جذعها الكبير، كل في جانب، ثم لا ألبث أن أمد يدي المرتعشة نحوها، فأحضن راحتها الغضة، الطرية، ثم ندنو من

بعضنا البعض، يلتقي جسدانا ثم نلتحم في قبلة طويلة، في ظل صمت الطبيعة المتواطئ الذي ينمنمه خرير المياه الناعم، وأصوات دويبات لا تعلن عن نفسها سوى في لحظات متباعدة.

واحدة من هؤلاء الفتيات قضت على ترددي لم أعد أقوى على المقاومة. رقتها وجمالها أخرجاني من الخيال إلى الواقع . كانت فتاة سمراء بملامح تلحس العقل .تتبعت خطواتها عن كثب، أصبحت أعرف عنها كل صغيرة وكبيرة. أحفظ عن ظهر قلب حركاتها وسكناتها . سجلت أوقات دخولها وخروجها جنبا إلى جنب مع أوقاتي، في " استعمال زمن" مواز. تعمدت الوقوف في طريقها حتى ألفت انتباهها، فطنت إلى وجودي المخاتل، لكنها لم تشجعني على التقدم خطوة إلى الأمام، فقط لاحظت أنها تتعمد المرور أمامي . وحين لا تراني، كنت أضبطها تلتفت في كل الاتجاهات باحثة عن مكمني. أعجبتها اللعبة فأدمنتها . بعد مدة لاحظت أن صويحباتها يشاركنها في لعبتها. كن ينبهنها إلى وجودي، ثم ينخرطن في الضحك. فتتعمد عدم التفات إلي، وكأنها غير معنية بالأمر. أشعرني ذلك بخجل عظيم، تمنيت لحظتها لو اختفيت عن الأنظار، لو امتلكت القدرة على أن أصبح غير مرئي. وبالفعل اختفيت لبعض الوقت. كان اختفاء مؤقتا، إذ سرعان ما استبد بي الحنين لرؤيتها، والتملي بحضورها الأسمر

الناعم. عدت صاغرا إلى عادتي القديمة. هذه المرة كان هناك تغيير حاسم قد طالني. لقد تمكنت من كتابة أطول رسالتي في حياتي.. أذكر أنها احتلت أربع صفحات من الحجم الكبير. هذه الخطوة أججت الحماس في نفسي، فانشغلت بإيجاد طريقة ما أوصل بها الرسالة إليها.

فطنت الفتاة إلى ما أفكر فيه، فأخذت تنعزل عن صويحباتها خلال فترات الاستراحة هذا الأمر شجعني، لكنني كنت أمر من أمامها دون أن أقوى على التوجه مباشرة نحوها. كلما استجمعت شجاعتي للقيام بالأمر تخذلني قدماي، أشعر بهما فارغتان لا تقويان على حملي حيث تقف مستندة على حائط أحد الجدران.. كنت أخشى أن تصدني بخشونة أو تسخر مني... ذات يوم وطدت العزم على حسم أمري. من بعيد رأيتها تقف بوزرتها البيضاء، وشعرها الأسود الناعم، تقدمت نحوها بخطى مرتبكة. قلبي يخفق بشدة . أشعر بشحوب مفاجئ يكتسحني. أكاد أفقد الوعي والتركيز على ما يحيط بي، اختفى العالم من أمام ناظري، فقط أصبحت بمفردها في العالم. ليس هناك سوى نحن الاثنين. خائفا مضطربا، وحالما تقدمت نحوها. توقفت بجانبها اختلست نظرة نحوها، فرأيتها مرتبكة مثلي بل ربما أكثر. لم تقو على رفع عينيها نحوي. حاولت أن أحدثها

بشيء، لكن لساني تخشب. كانت تتظاهر بعدم انتباهها إلى وجودي وكأنها لم تنعزل عن صويحباتها من أجلي.انتظرت للحظات طويلة، طويلة جدا، ثم دسست الرسالة في جيب وزرتها، وانصرفت، وأنا لا أكاد أصدق ما أقدمت على فعله.

يبدو أن الرسالة الطويلة أدت مفعولها وتجلى ذلك في تصرفات سمرائي الجميلة. أصبحت أكثر اهتماما بي. تتعمد الوقوف بمفردها لتشجعني على الاقتراب منها ومحادثتها. مر زمن طويل قبل أن أقوى على فعل ذلك... شيء ما كان يكبلني ويمنعني من أن أفعل ذلك. لكنني حسمت الأمر واخترت خطة أخرى لمحادثتها بعيدا عن المؤسسة حتى تكون فضيحتي في حالة الرفض أقل حدة.اخترت مكانا استراتيجيا يشرف على البيت الذي تقطن فيه. انتظرت وانتظرت، حتى كدت أيأس من ظهورها. لكنها ظهرت.. كانت تحمل قفة، وتتوجه نحو السوق الذي لا يبعد كثيرا عن بيتها. رأتني فابتسمت لي ابتسامة أطاحت بكل خوفي وترددي. كانت فرصة لا تعوض فعزمت على استغلالها. التحقت بها .حييتها بكلمات خجلي، ردت على تحيتي ثم مشيت بجانبها. تقبلت ذلك بصدر رحب.. دخلنا السوق معا.. شاركتها في اقتناء بعض الخضار.. وحين قضينا حاجتنا، غادرنا السوق. كانت القفة قد أثقلت بالثمار، فمددت يدي لأساعدها

في حملها. أعجبها ذلك، فاستمررنا في طريقنا كل يحمل القفة من جانب، متوجهين نحو البيت. قبل أن نفترق، أوقفتها. وضعنا القفة أرضا. ثم استجمعت شجاعتي وسألتها متلعثما:

- قرأت الرسالة؟

- نعم قرأتها، هل كتبتها بمفردك؟

- نعم، أجبتها، وقد تملكني إحساس بالفخر.

منبهرة نظرت إلي ثم قالت:

- إنك تكتب مثل كاتب. أسلوبك جميل جدا.

- تجاهلت ملاحظتها، وسألتها:

- ما ردك عليها؟

نظرت إلى أسفل، وقد بدا عليها الأسف، ثم قالت

- للأسف تأخرت كثيرا. قبل أيام ربطت علاقة مع شخص آخر يدرس في المرحلة الثانوية.

ارتجت بي الأرض لم أرد عليها بكلمة واحدة. فقط غادرتها غاضبا وحزينا. حاولت أن تقول شيئا. لم أهتم بذلك، أحسست بطعنة قوية في صدري، واصلت طريقي شاعرا بالخيانة والغبن. انسلت دموع من حدقتي. كانت دموع ألم وحزن وغضب، إنها أولى دموع الحب التي أذرفها وربما الأخيرة. حينها قررت أن أعود

راضخا مستسلما إلى رواياتي الرومانسية، لأحيا مغامراتي العاطفية في حضن الخيال، الذي لا أظنه يخذلني أبدا.

الفصل الثالث

الخيـــال

في الصفحات السابقة قلت بأن أمي ذكية، بل هي ذكية للغاية، تبهرني بقدرتها على التعامل مع الظروف التي تحيط بها بالطبع هي ظروف صعبة وعصية عن التطويع. لكنها كانت تطوعها حتى تصبح سهلة يسيرة في متناولنا نحن جميعا.. من صفات أمي المائزة أنها لا تيأس أبدا. دائما تفلح في إيجاد حلول مناسبة لكل مشاكلنا... خيالها الواسع كان يسعفها في ذلك، يفتح لها دوما طرقا غير مرئية لتتسرب عبرها نحو حلول مبتكر، لا يمكن أن تخطر للمرء على بال .. تدبر شؤون البيت بسلاسة. أبدا لم يفتقر بيتنا للضروريات التي نحتاجها. وجبات الطعام كذلك كانت تبدع فيها. تفاجئنا دوما بوجبات لم أسمع بها من قبل. أسماؤها تغرفها من قاموس حائل، لم يعد متداولا إلا بين القلة القليلة من النساء. حينما أخبر أقراني باسم وجبة من الوجبات، كانت الحيرة تتربع على وجوههم، فلا يفقهون شيئا. من القليل الذي يتوفر لديها تبرع في صنع وجبة تسد بها رمقنا. شعارها الدائم أن كل شيء يصلح لصنع شيء ما. والجوع

لا يمكنه أبدا أن يدق باب بيتنا، من بين أكلاتها الغريبة "الرفيسة العمياء" التي تتكون أساسا مما فضل من الخبز وتجمع في مكان تحرص على أن يظل نظيفا وجافا، تصنع له مرقا خاصا، ثم تقدمه لنا باحتفاء وتعليقات تجعل منه طعاما شهيا حتى وإن لم يستسغ المرء مذاقه، كانت تعد كذلك "فتات الشطبة" و "حلوة الغراف" وهلم جرا. و كانت فرحتي أمي تكتمل حين تدعو ابناء الجيران إلى "وليمتها" ، فيخرج الجميع راضيا مرضيا ، و قد استمر هذا ديدنها لوقت طريل ، فحتى حينما كبرت و أصبحت شابا كانت تستقبل أصدقائي بحفاوة ، و منهم من مكث في بيتنا شهورا بعد ظروف صعبة مر بها او مرت بها أسرته .. كل أصدقائي يحملون لأمي تقديرا خاصا ، حتى عندما كنا نثور على بعض الأمور ، كانت تساعدنا في فعل ذلك و هي تدعو لنا "الله يهديكم أوليدي " .. أمي تحفة حقيقية .

ليس الطعام وحده ما استحوذ على اختراعات أمي وإبداعاتها، فالملابس كذلك نالت نصيبها كانت تبرع في صنع قطع مما لديها من خيوط. تصنع الصدريات والجوارب والقفازات والقبعات وأشكالا أخرى تزين بها المائدة .. كنت أتتبع بشغف مهارتها في الصنع، تبدأ القطعة صغيرة ولا تعني شيئا، ومع استمرار مداعبة أنامل أمي للقضبان الطويلة يستقيم تدريجيا

شكل من الأشكال. كانت تبدو لي القفازات أكثر تعقيدا من غيرها، لا أفهم كيف تتشكل الأصابع وتأتي في آخر المطاف متقنة الصنع لا تشوبها شائبة.. في فترات معينة من حياتها شرعت أمي في صنع أطباق جميلة. كانت تبحث من نبات "السمار" ترتب عيدانه الدقيقة على شكل حزم صغيرة، ثم تشرع في إحاطتها بخيوط مختلفة الألوان. تنهمك في عملها لساعات بصبر وأناة، والابتسامة لا تفارق شفتيها. تجود بها علي كلما نظرت إلى وأنا مستغرق في تتبع عملها، الذي كان ينشط كثيرا خلال فصل الصيف بعد أن ينقضي موسم البرتقال وتصبح أمي عاطلة عن العمل.. يتقدم الصنع، فنحصل في الأخير على أطباق مزخرفة جميلة. نعلق بعضها في البيت للزينة، ونستعمل أخرى لأغراض شتى .

أمي بارعة ومبدعة كل فتيات العائلة يقصدنها ليتعلمن منها ما تقوم به. وكان ما تقوم به كثيرا وتنوعا. تتنقل بسلاسة من عمل إلى آخر. يكفيها أن ترى كيفية صنع شيء ما مرة واحدة. لتتقن صنعه.

في مرحلة معينة بدأت تصنع الزرابي، زرابي من نوع خاص كانت تقتني الملابس المستعملة وتقطعها إلى أطراف صغيرة. ثم تقيم في البيت "منججا" وتبدأ في العمل. أطلب

منها أن أساعدها، فتعلمني كيف أصنع العقد من قطع الثوب الصغير. بعد ذلك أصبحت هذه القطع متوفرة في السوق، فأخذت تقتنيها، وتصنع تلك الزرابي التي ما إن تنتهي من صنعها حتى تظهر في حلة رائعة، تتوسطها أشكال هندسية بديعة. تتوزع ما بين الدوائر والمثلثات والمربعات والزوايا بشتى أنواعها، لم أكن أستوعب كيف كانت هذه الزرابي تحافظ على إيقاع الألوان البديع، فتأتي منسجمة، وخلابة.إنها بركات أمي التي لا تنتهي، والتي لا تفتأ كل يوم تبهرني بكفاءتها وسعة خيالها التي لا يمكن مضاهاتها.

كانت أمي ولا تزال محدثة بارعة ما أن تحضر في جمع معين حتى تهيمن عليه بحديثها العذب والمتشعب .. لقد تشربت حكاياتها لمدة طويلة. حتى أنني أعتقد أنها تفوقت على جدتي في هذا المجال. لقد كنت مرتبطا بجدتي في فترات طويلة من طفولتي. كان ارتباطا ليليا بتحريض من أمي وإرضاء لها. جدتي تسكن في نفس الحي الذي نقطن فيه. كانت وحيدة، لذا كانت أمي تلح على لأذهب وأنام في بيتها. كنت أفعل ذلك برحابة صدر.. لأنني اعتبرت دوما جدتي امتدادا لأمي. حبي لها يعني حبي لأمي. في الليالي أنام في حضن جدتي. كانت ترفض أن أنام منفصلا عنها. ربما تجد في احتضاني تعويضا

من نوع ما عن الأبناء والبنات الذين فقدتهم في درب الحياة الصعب. أنجبت جدتي أحد عشر طفلا من بينهم صبيان، فقدتهم تباعا .. الواحد بعد الآخر ،وفي كل مرة يزداد الجرح غورا. من بينهم رحمة التي كانت أمي تتحدث عنها كثيرا. كان الجميع يعزها لكن الموت اختطفها في الصبا. مسكينة جدتي. أنجبت للموت أطفالا، التهمهم بلا شفقة ولا رحمة. كنت شاهدا على كراهية الموت وصلفه. كنت في السابعة من عمري تقريبا، حين جاء الدور على خالي أحمد.

كان زينة الرجال رجل شغيل ويجب الحياة. يمارس هواية الصيد بشغف.. بيته مفتوح للجميع. كان له كثير من الأصدقاء، الذين أراهم لا ينقطعون عن زيارتهم. كانوا يقيمون ما يشبه الاحتفال كل ليلة. كان يعجبني أن أتلصص عليهم، فأنبهر بضحكاتهم الناضجة. وسمرهم الليلي الآسر. كنت أشعر بمكانة خالي بينهم، فيعجبني ذلك. الموت تافه، وبارد، لا يتوفر على أدنى حد من العواطف. اختاره ذات ليلة حين كان يمتطي دراجته النارية الضخمة، التي كانت تسلب ألباب الأطفال في الحي، في ليلة ممطرة كئيبة وحزينة، فقدناه. وجد في الصباح ملقي على الإسفلت بالقرب من دراجته. لا أدري لم لم يركب سيارته الجديدة تلك الليلة. اختار الدراجة، فكانت سبب موته.. خسارة

جدتي كانت مضاعفة.. فقدت ابنها الأخير من الذكور وفقدت معه معيلها وحاميها، ومطمئنها.. كانت تبكي بحرقة لم أشهد لها مثيلا. أذكر أنني بكيت لبكائها. لكن ماذا بيدي أن أفعله أنا الطفل الصغير، الذي لم يفهم بعد قسوة الفراق، وغدر الحياة.

قبل أن أنقذف في حضن النوم كانت جدتي لا تكف عن الحديث. تكلمني في كل شيء. تقول كل ما يخطر على بالها. كانت مصرة على أن تحكي لي بالتفاصيل المملة حياتها كلها. حديثها كان في الغالب واقعيا، يتناول ما نعيشه من أحداث في حياتنا اليومية. وسير أشخاص أعرفهم. كانت جدتي متذمرة، ولا تني تشتكي من تصرفات الناس جميعهم. عندما أنام في حضنها تشرع في انتقاد هذا وذلك وتشتم هاته وتلك، وتحذرني من هذا الشخص ومن غيره، وتحرضني ضد آخر. لم يكن ذلك يعجبني، لكنني كنت مضطرا للإصغاء إليها حتى يختطفني ملاك النوم ويحلق بي في عوالمه الخيالية المجنحة. فأحلم أحلاما مختلف، أحلاما أرى فيها ما تشتهيه النفس وما ترغب فيه.

حديث أمي كان مختلفا عن حديث جدتي، كان في غالبه خياليا وعذبا، ويخلو من أي مس بالأشخاص وحتى إن جاء ذكر أحدهم عرضا، كانت تحرص على أن تعطيني عنه صورة طيبة.

حتى أولئك الذين يسيئون لها كانت تنجح في إيجاد أعذار لهم. من أمي تعلمت الكثير من الحكايات التي أعرفها اليوم. أغلب حكاياتها كانت تدور حول "الغولة" وهاينة" كانت بعض حكاياتها تحمل بين طياتها ألغازا يتعين على البطل حلها حتى لا يقع ضحية لعقاب الجن أو الغولة... كانت تأسرني بقدرتها على حكي ذلك بسلاسة وبلا تعقيدات. أكثر هذه الحكايات عثرت عليها فيما بعد في الكتب بشخصيات وأماكن مختلفة، لكنها تتشابه في الألغاز التي توشي بها مساحات الحكي.. حتى حديث أمي الواقعي عن أحداث وقعت بالفعل كانت تبرع في تدبيجها بشطحات من خيالها الجامع. أكثر حكاياتها الواقعية كانت تدور حول أناس تحبهم. وعلى رأس هؤلاء أبوها أي جدي، الذي لم تتح لي الفرص لمعرفته بشكل مباشر. فقط رأيت صورة له في وثيقة رسمية فترسخت في ذهني.. كانت أمي تحب أباها كثيرا، وهو الأخر كان يعزها ويفضلها على جميع أخوتها. كانت أمي تعتبر أباها صاحب كرامات بسبب نسبه "الشريف" إنه ينحدر من مدينة تافيلالت بإقليم الراشيدية، هذه المدينة التـي

عرفت بسلالاتها القادمة من الشرق، فظلت تتوارث وهم الشرف الذي لا أتصور كيف ينتقل بالوراثة إنها أحد أعطابنا المزمنة.. هذه الكرامات لا تتفق مع حالة العوز التي عاشها جدي

والمرض الذي لازمه حياته كلها تقريبا بعد أن جف ماء الشباب ، وفقد لأبنائه تباعا، بعد أن فتك بهم المرض وقلة الحيلة لإنقاذهم من مخالب الموت. فيما بعد أقعده المرض، وانفصل كل أبنائه وأبنائه عنه في منازلهم الخاص.

التحق جدي بالجيش الفرنسي كان شابا آنذاك، وثم نقله إلى بلاد السينغال غرب إفريقيا من أجل أن يحارب إعلاء لمجد فرنسا. كانت القوى الاستعمارية تلجأ إلى هذا الأسلوب القذر، فتنقل شباب المستعمرات من بلد إلى آخر للقيام بالحرب نيابة عنها.. نقلت فرنسا مغاربة وجزائريين إلى بلاد الهند الصينية والسينغال، ونقلت شباب السينغال إلى المغرب والجزائر، وهكذا ،حتى أن بعض مآسي الاستعمار ارتبطت بأبناء المستعمرات، كما حدث في المغرب حين تسبب المجندون السينغاليون في مجزرة رهيبة بمدينة الدار البيضاء، واجهوا خلالها انتفاضة سلمية للأهالي بالسلاح الناري، فتسببوا في قتل عدد كبير من المواطنين ..بالطبع لم يكن جدي يحمل أي وعي من هذا النوع .. كغيره من الأهالي كان يعتبرالأمر طبيعيا وعاديا، حتى نسبه " الشريف" لم يفلح في إيقاظ شعلة الوعي بما كان ضحية له، رغم أنه يبدو لنا الآن البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان. في إحدى الجولات العسكرية تعرضت الفرقة العسكرية التي ينتسب

إليها جدي إلى كمين محكم: قتل بعض الجنود، وتناثر البعض الأخر متفرقين في أماكن مختلفة، ناجين بحياتهم. كان جدي من بينهم. .قضى ليلته في الخلاء، لا يعرف له وجهة.

فعانى من البرد والجوع.. استسلم لقدره ونام في دغل حصين بعيدا عن الأنظار في انتظار أن يجود الصباح بنوره فيتدبر أمره.. لم تتأخر أشعة الشمس في إرسال أشعتها الحارة والمستفزة، كعادة شمس إفريقيا الحارقة .. استيقظ الجد من نومه، استطلع المكان من حوله، فإذا به يكتشف أنه على ضفة نهر كبير.. أقدر الآن أن يكون نهر السينغال أو غيره من أنهار إفريقيا الباذخة، حاول الجد أن يتغلب على رعبه. فتوضأ وصلى ثم رفع كفيه نحو السماء، مستحضرا أجداده الميامين، متوسلا إليهم بأن يهبوا زرافات ووحدانا لنجدته، وإنقاذه من الوضع البائس واليائس الذي وجد نفسه ضحية.. له أمام دهشتي وانبهاري تحكي لي أمي، أنه في تلك اللحظة بالذات ظهر أمام عيني جدي عود صغير قد يكون قطعة من قصبة، فالقصب كان يحتل ضفة النهر بكثافة ملحوظة. بدأ العود يتحرك أما عيني جدي الذاهلتين. كان يتراقص بخفة ليثير انتباهه. ثم بدأ العود في التحرك قفزا، ويمضي قدما شاقا طريقه وسط الأدغال والسهوب. فهم جدي الرسالة، فتبع العود. وطفق يقتفي أثره. لا

يفلته من قبضة عينيه.. مشى الجد لمدة طويلة مهتديا بقفزات العود يخترق الأحراش والمسالك الضيقة والسهوب المتمددة، حتى انتهى به المطاف إلى مشارف الثكنة العسكرية الفرنسية، وإذا بالعود يختفي فجأة. بحث الجد عنه، فلم يعثر له على أثر.. لم يدم بحثه طويل إذ سرعان ما عاد إلى الثكنة. فتحلق حوله الجنود المغاربة و الجزائريين.. حكى لهم ما حدث فزاده ذلك إجلالا في أعينهم ولم يتسرب الشك أبدا إلى عقولهم، بل قبلوا ما حكاه لهم عن طيب خاطر كما يتقبلون غيره ذلك من "الحقائق" فيكفي أن "الشرف" صاحبها، لتكون حقيقة لايدحضها شك ولا منطق.

من الصعب تصديق هذه الحكاية.. أعرف ذلك، وأنا نفسي بعد هذا الزمن الطويل، تخلصت من سطوتها على نفسي، لا أخفي، أنني صدقتها في حينها، لأن أمي تحكيها وكأنها كانت شاهدة عليها، وبطبيعة الحال لم أكن قادرا على مجرد التفكير بأن حديث أمي قد يخالف الحقيقة من قريب أو من بعيد.. كانت أمي تؤمن بأن النسب "الشريف" ينفع في مثل تلك الظروف الصعبة. دوما تؤكد ذلك حتى أقنعتني به ولم أتخلص من هذا الوهم إلا بعد ردح من الزمن.. كنت أجدني في لحظات حرجة وصعبة أقلد جدي أوقظ الأجداد الميامين من سباتهم الأزلي

لأتخلص من ورطة ما.. اليوم فقدت ثقتي في هذا النسب العجيب حتى أنني لا أستطيع حتى الحديث عنه أمام الناس. أصبح بالنسبة لي من تفاهات العقل المتخلف المتواكل الذي ورثناه عن أجدادنا الرائعين .

ما أظنه اليوم وهما كان بالنسبة لأمي حقيقة مقدسة لا يمكن لا أحد التشكيك فيها .. و مما رسخ هذا الاعتقاد لديها كونها كانت شاهدة على "كرامات" جدي .. لقد كان يعالج الناس من أمراض مختلفة وبدون مقابل. يكفي أن يبصق على يديه ويمسح بهما العضو المريض لزائره مع ترديد بعض الأدعية والآيات القرآنية ليجد الشفاء طريقه إلى المريض بعد أيام قلائل.. لا مجال طبعا للحديث عن المناعة الطبيعية التي تقوم بوظيفتها خفية وأنها السبب في علاج المريض. عقل أمي مثل عقول جميع الناس من حولنا، فرغم تميزها بذكاء فطري إلا أنه عقل مؤسس بشكل معين ، يسمح بالتفسير الأسطوري والخرافي ليكون متسيدا على ما سواه ..من صفات هذا العقل العجيب قبوله للتناقض بشكل لا يخلق له أي مشكلة، فقدرة جدي على علاج الآخرين لم تنفع في علاجه هو نفسه ولا في إنقاذ أبنائه من براثن المرض التي انقضت على أجسادهم

العليلة ورمت بها في دياجير الموت، و رغم كل ذلك لم يتزحزح الاعتقاد في "كرامات" جدي و بركاته قيد أنملة.

يمكن النظر إلى تلك الحكاية العجيبة للجد على أنها ضرب من الواقعية السحرية أو أدب الفانطستيك. هذا الأدب الذي سأطلع عليه في وقت متأخر خاصة من خلال روايات وقصص أمريكا اللاتينية. إذن جدي و أمي لم يكونا يكذبان بل كانا يكتبان بطريقتهما أدبا فنطاستيكيا .. بهذه الطريقة في التفكير استطعت أن أجنب أمي حرج التفكير في أنها كانت تختلق ما لا يصدق. إنها كانت تكتب أدبا فانطستيكيا جميلا، كنت أنا متلقيه وكان ذلك يؤثر في نفسي كثيرا. ربما لهذا السبب أقبل بنهم على قراءة هذا النوع من الأدب ويجد له هوى في نفسي. احتفيت بهذا الجد العجيب مرات عدة في كتاباتي. دائما أصوره بلاعيوب. رجل بوجهه الأسمر الهادئ ولحيته البيضاء التي تحتل جزءا كبير من وجهه.. لم يحالفني الحظ في رؤيته في الواقع فتأتى لي ذلك مرارا عبر الخيال الأدبي لأشبع بذلك نسبيا رغبتي العميقة في الالتقاء به والاستماع إلى حديثه ومرافقته في رحلاته التي تؤكد أمي أنها كانت متعددة.. كان وهو بن الصحراء لا يطيب له الاستقرار في مكان معين أجمل رحلاته التي ترسخت في ذهني ولم يسعفني الخيال في كتابتها إلى

يومنا هذا، هي تلك الرحلة التي قام بها صحبة جدتي إلى ضريح مولاي يعقوب طلبا للعلاج من أمراض ألمت به. تحكي أمي عن تلك الرحلة بإعجاب وإكبار. قاما بها مشيا على الأقدام رغم المرض. التقطت تفاصيلها من جدتي كذلك.. أخبرتني أنهما قضيا في الطريق أكثر من شهرين كان يتوقفان في القرى التي تصادف طريقهما. وإذا توفر عمل كانت جدتي تقوم به للحصول على بعض الزاد قبل أن يتسأنفا سفرهما المضني.. مرا بقبائل عدة، وتعرفا على عادات لم تخطر لهما ببال، حتى أشرفا على الضريح في ذلك المكان البعيد المتحصن بين الجبال. هناك قضيا مدة طويلة من الزمن، تحقق بعض الشفاء بفضل المياه الكبريتية الساخنة، وبركة الولي الصالح طبعا. لكن لم يكن الشفاء كاملا ..اكتفيا بما تحقق وعادا إلى مستقرهما قاطعين نفس المسافة بجهد وعنت لا يوصفان.

كانت أمي ولا تزال مترعة بالحكم والكلام المأثور كلما تطرق الحديث إلى موضوع، لا تعجزها الحلية في الإتيان بحكمة أو مثل يتماشى مع موضوع الحديث. كان ذلك يحيرني، ويبهرني ويلقي بي في متاهات الاستغلاق وعدم الفهم. أغلب الأمثال أفهمها حرفيا فيزيد ذلك من الإرباك الذي يهيمن على عقلي الصغير.. أبدا لا أصل إلى المعنى العميق الذي تتوخاه أمي

من مثلها.. أتذكر أن حالنا في فترة ما كان بائسا. كان أبي يهاجر صيفا إلى فرنسا ليشتغل في بعض الأشغال الموسمية التي تتطلب يدا عاملة تسافر إلى فرنسا لهذه الغاية وتعود نهاية الصيف إلى الديار.. تلك السنة هاجر أبي وتركنا بلا مال فعانينا من ذلك كثيرا. سرعان ما تسرب من بين يدي أمي ما وفرته خلال سنة كاملة من العمل ثم وجدنا أنفسنا مفلسين فلم نعد قادرين على تلبية الكثير من حاجياتنا الضرورية.. أصبح الجوع يدق بابنا بتؤدة وإصرار، لم نعد نتناول إلا النزر اليسير من الطعام، أمي لم تستسلم ولم تتخل عن عزة نفسها.. كانت توصيني بأن لا أظهر للناس حالة العوز التي أصبحنا عليها.. أتذكر المثل الذي أتحفتني به لقد قالت لي" :أنفخ دائما الحنك الذي يقابل الأعداء وبـ"الفطنة" التي أمتلكها بحثت عن أعداء مفترضين فوجدتهم بين الناس الذين يقطنون في حينا، خاصة أولئك الذين مسني منهم يوما بعض السوء، فأصبحت كلما مررت أمامهم أنفخ الحنك الذي يقابلهم حقيقة لا مجازا، دأبت على ذلك زمنا طويلا قبل أن أفهم أن أن أمي تقصد النفخ المجازي لا الحقيقي، قبل أن أستلقي على قفاي ضحكا من سذاجتي وفطنتي المفترى عليها.

الخيال نعمة، موهبة يمتلكها المرء كهبة طبيعية، لكن لا بد من تنميتها، وإلا أصبحت عقيمة دون ذات جدوى. كان لزاما لكي أنميها أن أمتلك الأداة، والأداة هنا هي القراءة والكتابة. كانت لهفتي للتعلم كبيرة منذ نعومة أظافري، حتى أنني أصررت على اللجوء إلى المدرسة قبل السن القانوني.. كنت لا أتوقف على البكاء مطالبا بالتحاقي بالمدرسة.بالطبع لم أقبل لأني سني صغير، لكن أمي لا تعرف المستحيل، فاقترحت على المسؤول عن تسجيل التلاميذ بأن يقبلني دون تسجيل، ثم يقرر فيما بعد. سمعتها مرارا تحكي هذه الحكاية لأناس مختلفين فترسخت في ذهني كحقيقة جديدة تؤثث دواخلي بالفخر والاعتزاز، خاصة أنني لم أخيب ظنها،تفوقت على الكثير من التلاميذ، فكانت جائزتي أن سجلت في الصف الأول رغم أن سني القانوني لا يسمح بذلك.

إصرار أمي على تعليمي الذي التقى مع رغبتي العميقة في ذلك نابعفي عمقه من حدث وقع لها، وكانت تحكيه للجميع بين حين وآخر، لقد قصدت في يوم من الأيام مصلحة إدارية لاستخلاص شهادة ما، تقدمت نحو الموظف المسؤول عن ذلك، قدمت طلبا، لكنه تماطل في الاستجابة لطلبها بحجج واهية.. غضبت أمي بعد إحساسها بالغبن، فانفجرت في وجه الموظف

متحدية بقولها: "بسبب ما عانيته منك، أقسم أن أبذل المستحيل من أجل تعليم إبني" تحكي امي أن الرجل لان ومنحها الشهادة الإدارية، وأنه ظل لمدة طويلة كلما ذهبت إلى تلك المصلحة لقضاء مأرب ما يسألها عني، وهل ما زالت عند وعدها ومن جميل الصدف أنها التقت به يوما بعد سنوات طويلة في إحدى المناسبات، وأخبرته بفخر أنني أكملت تعليمي وأصبحت أستاذا، فهنأها الرجل على ذلك، وهو ينظر إليها نظرة احترام عوضتها-كما-تقول عما أحست به من غبن وحسرة في ذلك اليوم البعيد.

امتلاكي لأداة القراءة والكتابة كان حاسما في ارتياد آفاق الخيال الواسعة وتنقيحها، فيسر لي ذلك كتابة قصص وروايات وأشياء أخرى أجزم لو أن أمي امتلكت الأداء لكتبت الكثير الكثير..

قوة خيالها ستسعفها حتما في ذلك.. ياه كم أتمنى أن أقرأ قصة تكتبها أمي.للأسف لن يتحقق ذلك أبدا. ظلت أمي راضية بأميتها، وكأنها اكتفت بأن يمتلك ابنها الأداة دونها. حين يتطرق الحديث إلى ما أكتبة، وغالبا ما يحدث ذلك في غيابي، لأنني لا أتحمله، كانت تعبر عن أن الأمر بديهي جدا وطبيعي إلى أقصى الحدود، حتى أنها تخبر محدثيها بأنها كانت تعرف ذلك قبل أن

يحدث.. يعجبها أن تردد على أسماع محدثيها أنني منذ الصغر كنت أجلس وحدي ولا أكف عن الكتابة بأصبعي في الهواء ،وكان يستغرقني ذلك لمدة طويلة وكأنني منفصل عن العالم من حولي، كان بعض الناس ينبهما إلى ضرورة الانتباه إلي، لأن ما أقوم به حسب اعتقادهم يمهد الطريق نحو الجنون لكن أمي أبدا لم تنهرني أو تطلب مني الكف عما أقوم به. كانت على يقين بأنني أمهد طريقي نحو الكاتبة، وإن لم تكن تملك فكرة واضحة عن الطريق الذي أسلكه .

الكتابة ضرب من الجنون، أو ربما تتاخم الجنون هذا اعتقاد شائع بين الناس.. كل كاتب يمتلك ذلك القدر من الجنون، قد يكون ظاهرا من خلال تصرفات الكاتب وأقواله. وقد يكون باطنيا لا يعرفه الآخرون. يحرص الكاتب على إخفائه عنهم، ويحتفي به بينه وبين نفسه، خاصة عندما يكون بعيدا عن معارفه. أشعر بنفسي- إذا سلمنا بوجود هذا الجنون أصلا -أنني أنتمي للفئة الثانية ،لأنني أعتبر هذا"الجنون" ملكية خاصة جدا و لا يلزم الآخرين في شيء و ليس ضروريا أ ن يعرفوه ، رغم انني اتحفظ على هذا الجنون و إنما أفضل أن اسميه اختلافا ، فالكاتب بالضرورة يتعين عليه ان يكون مختلفا ، لأنه أكثر حياته في الخيال يرافق شخصيات و أفضية لا وجود لها في

الواقع ، كما أنه غالبا ما يكون متمردا عن السائد من الأفكار و العادات و التقاليد ، و يطمح غلى أن يخلق عالما موازيا ، يلملم شتاته العصي عن الجمع.

هذا "الجنون" تملكني منذ الصغر.. من مظاهره توقي الدائم للعزلة والاختلاء بالنفس خاصة في فترات معينة. لا يعني ذلك نفوري من الحياة الاجتماعية، بل بالعكس كنت اجتماعيا زيادة عن اللزوم، لكني أفضل في فترات معينة الاختلاء بنفسي واشرع في بناء عوالم من خيالة ثم أهدمها.. أبني غيرها وأهدمها من جديد، وهكذا دواليك. كنت أفكر بواسطة الصور وليس فقط بالكلمات، حينما أستشرف مصيرا محتملا في حياتي كنت أراه مجسما أمامي يتحرك بصور واضحة، وكأن الأمر يتعلق بشريط أشاهده. في طريقي إلى أي مكان أقصده أبدو شاردا. أعيش عالمي الخيالي بكل تفاصيله. تتدفق الصور تباعا.فتغمرني مياههما المنهمرة ، وبما أنني جزء من هذه الصور المنسابة، فقد كانت تنم عني قسرا حركة أو كلمة منفلتة.. كان ذلك يجعلني أعيش في ظل متعة لا توازي. في بداية الأمر كنت أظن أن جميع الناس مثلي، تكتسحهم الصور الخيالية، فاعتبرت الأمر عاديا، لكن بعد مدة طويلة من الزمن تأكدت بأن الأمر يقتصر فقط على بعض

الناس القلائل المنتشرين على امتداد المعمورة، أفرحني ذلك، أحسست بأنني مختلف وأتمتع بموهبة لا يتمتع بها الجميع، فقط أصبحت أكثر احتراسا أمام الناس حتى لا تصدر عني حركات غريبة أو كلمة منفلتة. في لحظات معينة أعجز عن ضبط نفسي، إذ يصبح تدفق الصور سيلا جارفا لا طاقة لي على التحكم فيه، وتنهمر الكلمات من كل صوب، فتغرقني في بحرها المتلاطم. أشعر بسعادة غامرة، فأعبر عن فرحتي بأغنية تتردد على لساني دون توقف لفترة زمنية طويلة.ليست أغنية بالتحديد، بل مجرد مقطع أكرره بلا ملل. أردده في كل مكان ولا أخجل من فعل ذلك. أعرف أن صوتي بعيد عن أن يكون صالحا للغناء لكنه كان يطربني ويخفف من الحالة الغريبة التي تتملكني.

كان الحلم ولا يزال متواطئا معي في لعبة الخيال هذه إذ أن تدفق الصور يستمر ليلا بزخم كبير مبهر، أذكر أنني خلال مرحلة التعلم حين كنت أراجع درسا ما، وأستوعبه جيدا. يجد طريقه سالكا نحو الحلم، في إحدى السنوات الحاسمة في مسار دراستي، كانت الهند والبرازيل والصين ومصر ضمن مقررات مادة الجغرافيا، وكنت قد فتنت بهذه المادة أيما افتتان، إنها تعرفني عن أمكنة جديدة بتفاصيل شافية، في الليل حين آوي

إلى فراشي، أنتظر الجائزة الكبرى التي لا تخذلني أبدا. ما إن أنقذف في النوم، حتى أرى نفسي أطوف في بلاد الهند الشاسعة. أتجول في مدنها وقراها. أتقلب بين سهولها وجبالها الشامخة. أزور "تاج محل" وأتطلع بفضول إلى "بوذا" ذلك الإنسان الاله الخالد، تسلبني سمرة الهنديات وعيونهن الواسعة ببياضها البراق، التقي ب"الشاشي كبور"وأردد معه الأغاني الجميلة.،ثم أسترق النظر للرمز الخالد الماهتما غاندي الذي حارب الامبراطورية التي لا تغرب عن الشمس بمعدة خاوية وجسم عار و نظارتين طبيتين ترتجفان على أرنبة أنفه.وفجأة أجدني انتقلت إلى بلاد الصين، فيبرز حائطها العظيم يتمدد شامخا فوق الجبال والهضاب والسهول، أجالس الأب "ماو" وأتعلم من ثورته الثقافية المجيدة ثم أنتقل إلى اليابان لأطوف في حدائقها البديعة و جزرها الفاتنية. أقرأ أشعار الهايكو، وأذوب في سحر الطبيعة الأخاذ. أرفرف بجناحي المفترضين بعد ذلك لأحط الرحال جانب أبي الهول وأهراماته الخالدة، يفتنني النيل بامتداده الأسطوري، كان الأقدمون يعتقدون أن مبنعه السماء.

كم هي جميلة هذه الفكرة رغم ابتعادها عن واقع الحال،و لكنها صائبة بشكل من الأشكال فكل ماء مصدره الأصلي

السماء.. أطوف في حواري القاهرة، أختلط بأهاليها، يحضر في الذهن نجيب محفوظ بحرافيشه و قشتمره و أولاد حارته و هلم جرا.. ثم ما ألبث أن أجد نفسي على مشارف الإسكندرية، تبدو حمامة تحط على ضفاف المتوسط. استحضر بانيها العظيم، ذلك الاسكندر الأكبر، الذي استطاع في وقت وجيز السيطرة على الشرق وإسقاط أهم إمبراطورية فيه، إمبراطورية الفرس، وحلم بإنشاء عالم جديد يوحد فيه الشرق و الغرب برؤيا حالمة ، تكسرت على صخرة الواقع العنيد و الطموح المفرط في تفاؤله و الخيانات الكبيرة و الصغيرة. ألتف -بعد ذلك- حول الدلتا، ومنها أتوجه نحو قناة السويس، أتذكر عبد الناصر البطل العظيم الذي أممها، فضمن لمصر استقلالها وسيادتها الحقيقية، ثم أمتطي صهوة بساط الريح، لأعبر المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات، لأحط الرحال ببلاد"السامبا"، البرازيل، بتنوعها الاثني والطبيعي العجيب أحلق في أجواء غابة الأمازون، بامتدادها الأخضر الشاسع، وأتطلع من هناك إلى نهرها الاستثنائي.

كانت هذه الرحلات الليلية تمتعني، وترسخ في ذهني ما تلقيته من دروس.. فضلا عن متعة الخيال المجنح التي تكسبني إياه.

شكلت الكتابة لي نوعا من الخلاص فكل ما يمور في داخلي وما أكثره، يجد طريقه نحو الورق. ما أتخلص منه أكثر مما احتفظ به، أستطيع أن اكتب في سنة واحدة أكثر من ثلاثة كتب، بعضها يجد طريقه إلى النشر، والبعض الآخر احتفظ به أو أتخلص منه نهائيا. أشعر في أعماق نفسي بأنني وجدت من أجل الكتابة، كتبت لفترة طويلة في ذهني،قبل ان أحبر عوالمي الخيالية على الورق.

بنيت عوالم وهدمتها استمتعت بها طول طفولتي وشبابي ولا أزال. لكنها للأسف تصبح بعد حين عدما. من الصعب استرجاعها بعد فترة من الزمن. الكتابة قيد، تسجن العوالم المتخيلة في الكتب، فتسهل العودة إليها كلما حنت النفس إليها. أصبحت الكتابة بالنسبة لي -في جزء منها- وسيلة لتصفية الحساب مع الماضي، خاصة مع أمور تثقل على نفسي. يكفي أن أكتبها لكي أتخلص من ثقلها. إنها طريقة ملكية في العلاج النفسي. في أحايين أخرى تشكل الكتابة نوعا من التعويض عن أشياء تنقصني، ولم أدركها في حياتي، من بين الرغبات العميقة التي حققتها لي الكتابة بشكل باذخ، حرماني من أن تكون لي ابنة لم أحصل عليها، وآلمني ذلك، فعوضته بابنة من كلمات أو من ورق. هذه اللعبة الخيالية الجميلة أفلحت معي

فحققت لي إشباعا نسبيا. كلما حنت نفسي إلى تلك البنية أعود إلى الرواية وأقرأها. اسم الرواية "على ضفاف البحيرة" فيشعرني ذلك بالسعادة. حقيقة لا يمكن للمرء أن يتوقع ما يمكن للخيال أن يفعله.بالمناسبة تحمل ابنتي الورقية اسم "شمس"، وقد أتعهد شخصيتها في كتابات لاحقة، وقد لا أفعل. لكنني احتفظ لها بمكانة خاصة في القلب. أرعاها بصمت، وأحبها بلا تحفظ، وفوق ذلك لا أخشى أن أفقدها يوما، فالكتابة كفيلة بتحصينها ودرء أي خطر قد يصيبها. في حقيقة الأمر تحيلني تلك البنية المتخيلة على فتاة حقيقية أحببتها بحق و تمنيت أن تكون ابنتي ، و حين كتبت عن شمس كانت هي حاضرة ببذخ و قوة.

من أفضال الكتابة علي كذلك أنها مكنتني من إعادة بناء الذات من جديد، بعد التعرف عليها جيدا إنها تمنح المرء الفرصة للتعمق في أغوار النفس، والكشف عن مخبوئها، كما أنها تمنحه إمكانية إعادة التفكير في كثير من المسلمات والاقتناعات العقلية، لا مجال هنا للتسليم بأي أمر. كل شيء على المحك. وما لا يصمد أمام التحليل والتفكير، يرمى في مهاوي العدم.كما أنها اتاحت تمرير كثير من الافكار التي أومن بها من خلال الموضوعات التي أكتب عنها أو من خلال الشخصيات التي أعهد

لها القيام بالأحداث و تطويرها أو من خلال أشياء أخرى لا داعي لشرحها.

الفصل الرابع

الحياة

من يلقي بنظره نحو أمي ستبدو له هشة وضعيفة، لا تقوى على تحمل أي عناء أو ضنك.

الحقيقة على العكس من ذلك تماما ، أمي قوية وصبورة إلى حد يصعب تصديقه. دوما أبهرتني بقدرتها على التحمل، والأهم من ذلك قدرتها على التسامح تجاه الجميع، حتى أولئك الذين أساؤوا إليها إساءة بالغة، تجد دائما سبلا ممهدة للتسامح والنسيان .دوما كنت أختلف معها في هذا الأمر، شعاري الدائم تجاه المسيئين التعامل بالمثل..، أحب من يحبني وأكره من يكرهني.. من أحسن إلي حملت ذلك دينا أبديا على كاهل، ومن أساء إلي رددت له الصاع صاعين.. أعترف أن أمي أقوى مني، حتى وإن كان تسامحها المفرط يغيظني.. تتلقى الإساءة اليوم، وتسامح غدا. من أين امتلكت كل هذه القوة؟ وما الذي يجعلها هكذا؟

طفولة أمي كانت صعبة كباقي طفولات المغاربة الذين ولدوا في كنف ظروف وطنية خاصة أقصد ظروف الاستعمار.

ولدت أمي سنة خمس وأربعين وتسعمائة وألف. كان المغرب آنذاك محتلا من طرف فرنسا في وسطه وإسبانيا في شماله وجنوبه.، فيما تمتعت مدينة طنجة بوضع مختلف ، كانت مينة دولية ، تحكمها قنصليات و سفارت دول غربية متعددة.. مدينة الدار البيضاء التي كانت حاضنة لمسقط رأسها أضحت مدينة كبيرة. الأكبر في المغرب سكانا وعمرانا. أهلها ميناؤها لتصبح شريان البلد الاقتصادي. منه تصدر بضائع المغرب إلى باقي بلدان العالم ، تلك البضائع التي كانت في أغلبها منتوجات زراعية، بالإضافة إلى خام الفوسفاط الذي يستخرج من وسط البلد وجنوبه، خاصة في منطقة خريبكة واليوسفية وابن جرير. أصبحت الدار البيضاء وجهة للمغاربة. يقصدونها من كل حدب وصوب. اقتصادها المتنامي أغرى الجميع بالقدوم إليها بحثا عن فرص أفضل في الشغل والحياة. فأضحت مدينة مكتظة بالمهاجرين من شتى بوادي المغرب ومدنه.. هذا الواقع جعل المدينة بوثقة تمتزج فيها الأعراق: البدو والعرب، والأمازيغ.. البيض والسود والسمر.. أهل الشمال والجنوب والشرق. لم تعد للمدينة هوية واحدة صافية ومتجانسة، بل أصبحت تحفل بالتنوع.. أكسبها ذلك إيمانا عميقا بالتسامح وقبولا للآخر المختلف. لم تكن النعرات القبلية موجودة إلا في حدودها الدنيا،

خلافا لما يقع في مدن ومناطق أخرى من المغرب ، حيث تستحيل مثلا الزيجات بين العرب والأمازيغ مثلا أو بين البيض والسود .. الكل هنا مهاجر، شغلهم الشاغل البحث عن المكسب المادي، والمال لا عرق له ولا لون.. قلة هم من يستطيعون ادعاء انتمائهم الأصيل إلى مدينة الدار البيضاء ... هذا الوهم يمتلك في بعض الأحيان قبائل أولاد حدو التي استوطنت الضواحي منذ القدم وقد يتسع الأمر ليشمل أهالي الشاوية. لكنه أمر لا يستقيم ويبدو مدعاة للسخرية أحيانا. الدار البيضاء هويتها متجددة وحديثة، تتشكل كل يوم بشكل مختلف، مدينة عمالية، تستمد أصالتها من مهمشيها وأحيائها الشعبية التي تبدع كل يوم لفظة جديدة، أو نكتة جديدة أو أغنية محلية حتى النخاع.. يبدو لي أحيانا أن التعصب لفريق كرة القدم البيضاوية أقوى من أي انتماء، أقصد بالتحديد فرق الرجاء والوداد والاتحاد إضافة إلى فرق الأحياء المغمورة ..في الدارالبيضاء لا يسألك أحد عن أصلك بقدر ما يسألك عن الفريق الذي تناصره. أهل الشاوية الذين يحلو لهم ادعاء أصالتهم في الدار البيضاء لم يفلحوا في بصمها ببصمتهم الخاصة، لأنهم في غالبهم بدو وفقراء. الهوية يصنعها الأقوياء وذوو النفوذ، والنفوذ في الدار البيضاء تمتلكه البرجوازية الوليدة، والمكونة أساسا من "أهل

فاس"و"أهل سوس " الذين هاجروا إليها في الفترة الكلونيالية، فطبعوا المدينة بطابعهم الخاص، خاصة أهل الفاس الذين أصبحوا السادة الجدد بامتلاكهم لوسائل الإنتاج،فيما هيمن أهل سوس على المجال التجاري ،أما باقي الساكنة فلا يمتلكون شيئا غير رأسمال رمزي متمثل خصوصا في شعارات كرة القدم، وأغاني المجموعات الشعبية وعلى رأسها مجموعة ناس الغيوان، والتكادة والسهام، و حديثا جدا حمل المشعل مغنو الراب الذين صالحوا الفن مع سفليته و هامشيته ، و قد نبغ في ذلك فنانون شباب من قبيل الدون البيغ و معاد الحاقد الذي اعتقلته السلطات على خلفية أغنية تحتفي بشباب عشرين فبراير، وتنتقد النظام بقوة ، فيما البيغ اختار أن يتمترس في الجهة الأخرى إيثارا للسلامة ،بل سخر من الشباب المنتفض في إحدى أغانيه، عكس ما اشتهر به سابقا من أغان تسخر من السلطة ، وهي الأغاني التي صنعت مجده.

جل ساكنة الدارالبيضاء المقهورة الفاعلة بطريقتها في ذاكرة المدينة تقطن المباني المتهالكة والآلية للسقوط في المدينة القديمة ودرب السلطان والحي المحمدي ودرب غلف... أمي كانت تسكن بيتا متواضعا في المدينة القديمة،حيث القلب النابض للمدينة، قربها من الميناء ومركز المدينة الحديث

جعلاها قبلة للبيضاويين من جميع الأحياء، كانت المدينة القديمة ولا تزال إلى يومنا هذا مركزا تجاريا أساسيا في الدار البيضاء.

ما يزال "باب مراكش" وباعته المقيمون والمتجولون شاهدين على ذلك، هذا المكان الحيوي سيؤهل أمي لكي تنفتح على الحضارة بشكل واسع، لذا كان ذوقها حضاريا في كل شيء.. في اللباس والطعام، والأغاني التي يروق لها الاستماع إليها، وفي كل ما يتعلق بأمور الحياة، حتى البسيطة منها.

المدينة القديمة صورة مصغرة للدار البيضاء، خليط غريب ومتجانس من المغاربة يتجمع في تلك البؤرة، الملتهبة، بصراعاتها وخصومتها وبأفراحها وجنونها كذلك.

قربها من الميناء كان نعمة ونقمة في نفس الآن، ففي الوقت الذي ييسر للسكان سبل الكسب والحصول على لقمة العيش، كان في الوقت ذاته مصدرا لعدة مشاكل.. الخمور متوفرة والمخدرات منتشرة، مع ما يرافق ذلك من إدمان وحروب الشوارع بين المدمنين، التي تستعر بين السكان في كل لحظة وحين، تصبح هذه الحروب لا تطاق ليلة السبت والأحد، في هذه الليلة يفقد جل الشباب والكهول ذكورا وإناثا الوعي، ويصبحون أدوات متحركة للأذى، عانت والدتي من هذا الوضع. قلبها الهش

لا يتحمل مظاهر العنف المتكرر، والذي يصل جزء منها إلى البيت الذي تسكنه. فالأزقة ضيقة، والبيوت متلاصقة ومتداخلة، والناس يتعارفون فيما بينهم، وأي صراع أو خصام ينعكس على الجميع.جدي كذلك لم يتحمل هذا الوضع. وقاره واحترامه الكبير للتقاليد والدين زاد من الإحراج الذي يشعر به من جراء الكلمات النابية والخادشة للحياة التي تتطاير بلا توقف، وتحط بائسة ومستفزة وسط الجمع الأسري الذي يحاول أن يكون نقيا بعيدا عن القذارة.بعد معاناة وجلد قرر جدي تغيير مقر سكناه ..قاده هذا القرار إلى منطقة عين الذئاب المحادية لمجالين حيويين البحر والغابة. ووفر له بالتالي الابتعاد بأسرته عن بؤر "الحروب الأهلية" التي لا يخمد أوارها، والنأي بأبنائه الذكور على الخصوص من خطر الإدمان.بسهولة استطاع الحصول على عمل كحارس لإحدى الفيلات التي يمتلكها أحد الفرنسيين، الذي ظل يعامله بلطف وكرم لمدة طويلة. اجتهد الجد في بناء بيت لأسرته في إحدى المناطق العشوائية القليلة السكان. فالضاحية لم تكن آنذاك منطقة جذب للسكان عكس وسط المدينة حيث الشغل والتجارة متوفران.

في مقام الأسرة الجديد ،افتتنت أمي بالبحر، فأضحى للحياة طعم مختلف.. حين استقر المقام للأسرة. وتحسنت

أحوالها المادية نسبيا قررت إضافة حوش يلاصق البيت، اتخذه الجد حظيرة لتربية بعض الرؤوس من الأغنام والماعز. الفكرة كانت ناجحة، لأن الغابة وفرت الكلأ للماشية.. أصبحت أمي رفيقة لهذه الكائنات الوديعة. تسرح بها في الغابة المتاخمة للمحيط. كانت آنذاك تسمى "الديسة" فيما بعد تغير اسمها الذي لازالت تحمله إلى اليوم "غابة سندباد." هذه الرفقة الجديدة لأمي أترعت وجدانها بأحاسيس لطيفة. أضحت هذه الحيوانات عشيقتها. تعطف عليها وتحدثها بحديث الإنسان للإنسان. اختار لها الجدة عنزة وأخبرها أنها في ملكيتها. فأخذت تدللها ولا تفارقها أبدا. تخاطبها ككائن عاقل، كانت العنزة تبادلها نفس الشعور، حتى أنها أضحت ملازمة لها كظلها، لم تفارقها حتى في البيت إذ كانت دوما تجد وسيلة للانفلات من سياج الحوش، وتفاجئ أمي بحضورها المفاجئ المربك واللذيذ. تترك أمي ما تكون منشغلة به، وترافقها في جولة خاصة. يتيه الكائنان في رحابة الغابة. يتطلعان إلى الأشجار، يدثرهما صمت ملائكي، تتخلله بين حين وآخر زقزقة العصافير وهسهسة النسيم كلما اخترق أوراق الأشجار، ومر من خلالها، ليصدر نغما خافتا محببا للنفس.. يتجاوزان الغابة، وتهيم أقدامهما في رمال الشاطئ الناعمة، مداعبين طراوة البساط المائل إلى الصفرة،

الذي غادرته مياه المحيط قبل لحظات. غالبا ما يكون الشاطئ فارغا إلا من بعض الفرنسيين الذين يستمتعون بشلال أشعة الشمس، وبرودة مياه المحيط، لم يكن المغاربة بعد قد اكتشفوا هذه المتعة الصغيرة، بل كانوا يعتبرون التعري على الشاطئ عملا منافيا للأخلاق والتقاليد. هذا الأمر سيتغير لاحقا ليصبح إقبالهم على البحر بزخم لا يصدق ، و سيبزون الجميع في لعبة التصريح بالممتلكات الجسدية.

تمضي أمي والعنزة في طريقهما الحالم، حتى تشرفا على ضريح "سيدي عبد الرحمان" السادر بين صخور الشاطئ كمعلمة لا تخطئها العين. تملآن البصر والروح بمهابة المكان وقداسته ، تتمنى كل منهما أمنية، قد تتحقق ذات يوم، إذا ما كان الولي الصالح قد انتبه لوجودهما وأحسن الإصغاء لدعواتهما، وأسعفته الحيلة للاستجابة لهما.

هذا الجو البديع والهادئ، الذي عاشته أمي واطمأنت له لفترة من الزمن، سينهار فجأة، ودون سابق إنذار، إصابة أبيها بداء عضال، سيخلع عنها ثوب الطفولة، ويرميه بعيدا في مهاوي النسيان لتقتحم عالم الكبار في غير أوانه ستشمر عن ساعد الجد لتبحث عن عمل، تعيل به نفسها وأباها الذي لزم الفراش.

في الضواحي مزارع للفرنسيين تنتشر في كل مكان كانت تحمل أسماء هؤلاء الملاك القادمين من بعيد، ليستولوا على خيرات البلاد. كانت المزارع تنتج الخضر على الخصوص، طماطم وبطاطس، تصدر في أغلبها إلى دول أوربا وعلى رأسها فرنسا. أصبح هذا النوع من النشاط الزراعي يغزو المغرب بأكمله بعد أن قضى نسبيا على زراعة الحبوب التي توارثها المغاربة عبر القرون. هذا التحول العميق سيؤثر مستقبلا على النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمغرب، فبعد أن كان مصدرا للحبوب أصبح مستوردا لها، فيما ربطه تصدير الخضر والفواكه باقتصاد أوربا بشكل كبير حتى أنه لم يعد قادرا عن الاستغناء عن ذلك، فنتج عنه تبعية اقتصادية مخزية.

ذهبت الطفلة إلى إحدى المزرعات بحثا عن العمل، تحمل في قلبها أملا زئبقيا، لا يستقر على حال رآه الفرنسي بالصدفة، واستفسر عن وجودها في مكان العمل، علم برغبتها في الشغل، فرفض ذلك بدعوى أنها طفلة لا تقوى على الجهد الذي يتطلبه العمل. لكن توسلاتها، وكلماتها المستعطفة ستنجح في حصولها على ما ترغب فيه، شرط أن تكلف بالأعمال بالبسيطة، كأن تحضر الماء للعمال حين يحتاجونه مقابل أجر زهيد، تتقاضاه نهاية الأسبوع، فرحة أمي بالعمل لا توازيها فرحة.

فرغم الإنهاك الذي شعرت به بعد مغادرة المزرعة، إلا أنها كانت معتزة بكونها حصلت على العمل، بل زاد من اعتزازها بنفسها كونها أصغر عاملة في المزرعة ..حين يندمج الأطفال في الشغل قبل الأوان، فإنهم سرعان ما يكبرون، وكأن أجسادهم تنخدع بحيلة العمل، فتستجيب لمتطلباته. أصبح جسد أمي مستعدا لإنجاز العمل المضني. تقدمت ذات صباح نحو المشرف على العمال وطلبت منه أن يجربها في عمل الكبار. وافق بعد تردد، لكنها لم تخيب ظنه، لقد أظهرت تفانيا وقدرة على إنجاز ما تقوم به باقي العاملات، كل ذلك كان على حساب الجسد الغض الذي فقد – بفعل الجهد – بوصلته. فحفزه ذلك على النمو السريع، فأصبحت أمي امرأة طفلة. جسد طفلة وروح امرأة ناضجة. بالطبع أكسبها ذلك بعض الدريهمات الزائدة، لكنه أفقدها الكثير الكثير، مما لا يعوض.

كان جدي يتألم لوضع طفلته الأثيرة، لكن لا مناص من ذلك، فأبناؤه وبناته بدؤوا يستقلون عنه واحدا بعد الآخر، ومعالم مستقبلهم غامضة، ولا يمكنهم بأي حال من الأحوال تقديم مساعدة ذات بال، في غضون ذلك كانت الماشية التي يمتلكها جدي تنفلت من بين يديه تباعا، ليساعده ثمنها على تحمل تكاليف الحياة التي ازدادت صعوبة.

أمي تشتغل أسبوعا كاملا وحين تقبض أجرتها، تحملها بقلب يخفق فرحا، وتقدمها إلى أبيها، والدنيا لا تكاد تسع سعادتها، فيما يمطرها أبوها بدعوات صالحة، وحرقة في النفس، على الوضع الذي وجد نفسه ضحية له.

لفتت الطفلة الصغيرة، الجادة والمتفانية في العمل.. الفرنسي صاحب الضيعة، فإذا به يشعر بعاطفة قوية نحوها خاصة لما علم بظروف أسرتها الصعبة، فقرر أن يقوم بشيء ذي بال من أجلها .. طلب من المشرف على العمل أن يلحقها بالعمل في معمل تلفيف البرتقال الذي في ملكيته هو الآخر، فاستجاب الرجل بدون تلكتلكؤ، فأحدث ذلك تحولا كبيرا في حياة أمي.. بغتة تصبح أصغر العاملات سنا في معمل التلفيف بعد أن كانت أصغرهن في المزرعة، واجهتها مشكلة السن كي تصبح لها أوراق رسمية، فاضطر المحاسب إلى أن يضيف إلى سنها ثلاث سنوات، حتى يمكن تجاوز هذه العقبة، ولا زالت تلك الزيادة في العمر مستمر إلى اليوم، إذ سيتم اعتمادها في الأوراق الرسمية بعد تسجيل أسرتها في الحالة المدنية، أصبحت أمي عاملة نشيطة ، تلفت الانتباه إليها بحويتها المفرطة ، فهي سرعان ما تؤثر في من حولها من الناس، روح صافية ومتألقة، وجسد

نشيط لا يكل ولا يمل، وقلب كبير يسع العالم بشساعته... تواطأ معها

الجميع فتم تكليفها بأعمال بسيطة لا تنهكها، يكلفها العمال بأمور بسيطة يحتاجون إليها وتقوم بها بطيب خاطر وابتسامة رضى لا تفارق شفتيها.

هكذا أصبحت لأمي حياة جديدة كل الجدة مظهر جديد يتلاءم مع الوضع الجديد، طاقم برتقالي يشي بانتمائها إلى معمل تلفيف البرتقال. أوراق رسمية تؤكد ذلك. وزميلات وإن كن يكبرنها سنا إلا أنهن شملنها بعاطفة أمومة صادقة. وفر لها العمل دخلا مستقرا ومستقبلا واعدا.. غير أن حالة الجد كانت تتدهور باستمرار.. كنت قد تحدثت سابق عن تلك الرحلة الخرافية التي قام بها جدي رفقة جدتي إلى مولاي يعقوب للاستشفاء. لن أكرر الحديث عنها، لكنني لست متأكدا من حدوثها في هذا الوقت بالذات أم في فترة سابقة أغلب الظن أنها حدثت في وقت سابق، أو أنها لم تحدث أبدا وليست سوى محصلة خيال يستجيب لرغبة عميقة للقيام بها. المهم أن جدي لازم الفراش لمدة طويلة قبل أن يحرره الموت من الألم والمرض المزمن ومن حياة صعبة وقاسية وعنيدة.

لم تتحمل أمي هذا الفرق الصعب بكت بحرقة، وأحست حقيقة بيتم كبير أضحت وحيدة بشكل فظيع. علاقتها بجدتي لم تكن حميمية بشكلها المطلوب.. بعد ذلك ستجعلها أمي بإصرارها و تحملها كذلك، حتى أن جدتي فارقت الحياة بعد زمن طويلا تحت إشراف أمي في إحدى غرف بيتنا.. لكن في ذلك الوقت كانت طباع جدتي صعبة، لقد كانت كثيرة التذمر. ولا يمكن أبدا نيل رضاها.لذا لم يخفف وجودها من حالة أمي شيئا. كان عليها الاستعداد لما سيأتي به المستقبل المجهول بدون سند قوي، ذلك الذي فقدته بفقدان أبيها. أنا كذلك أحس باليتم. لا أدري كيف نقلت لي أمي هذه الإحساس ..أشعر بأنني سأكون أفضل حالا لو رأيت هذا الجد، وعشت في كنفه، واستمعت لحديثه، دائما كنت أستحضره في ذهني ولو بشكل مختلف، لا يمت للحقيقة الواقعية بصلة. صورته التي رأيتها يوما في وثيقة رسمية وحديث أمي المتواصل عنه داعبا خيالي وشطا به بعيدا. في الطفولة كنت أعتقد أن لهذا الجد قدرات خارقة، بإمكانه أن يدلل أكثر العقبات صعوبة وتعقيدا. أشعر بامتدادي فيه. جذوري ضاربة في عمق هذا الجد، لهذا السبب ربما لازمني دوما الإحساس باليتم حتى وإن كان أبي حيا يرزق، ربما كنت فقط أتماهى مع إحساس أمي باليتم، لأنها كلما

ذكرت أباها كانت تتحول إلى كائن مختلف، كائن متألم وحزين وعاطفي إلى أقصى الحدود. تعتصر قلبه هموم بلا حصر .. تتحدث أمي عن أبيها بما يشبه القداسة، تجله بحق ، فنجحت في نقل العدوى إلي أنا كذلك ،لأنني أحبها بلا حدود، وأعتبر أفراحها أفراحي وأحزانها أحزاني ، فكان لزاما ان أحب جدي و اشعر بفداحة موته رغم انني لم أره أبدا .

باختفاء أبيها كان مصير أمي قد تحدد ..لابد أن تغادر بيت أسرتها، بعد أن تبحث لنفسها عن زوج.. خاصة وأن الأنثى داخلها عبرت عن نفسها بأشكال مختلفة. كانت لها علاقة مع امرأة تسكن غير بعيد عنها، كانت صديقتها. وجمعتهما أحوال متعددة. لا أعرف تفاصيل هذه العلاقة، أشعر بأنها كانت صديقة حميمة لها ، و كانت تشاركها أسرارها و تثق فيها ثقة عمياء . اقترحت هذه المرأة على أمي الزواج من أخيها، الذي كان يقطن في البادية رفقه والديه وإخوته، وقد حل حديثا بالدار البيضاء بحثا عن عمل.. سارت الأمور بكثير من اليسر، لا تعقيدات واجهتها في البداية. لأمي أخ أكبر منها يشق طريقه في الحياة بثبات. كان مستقلا لكنه كان طيبا. أمي تحبه وأنا كذلك.. كان يشتغل سائقا، يقود شاحنة كبرى من النوع الكبير

جدا، تحمل البرتقال الملفوف من المعمل إلى الميناء. ياه كم كانت تبهرني تلك الشاحنة الضخمة التي يقودها. كنت أظن أنه يمتلك قوة خارقة لقدرته على جعل تلك الشاحنة العملاقة تتحرك. وكان ذلك مصدر فخر لي. هذا الخال كان يسحرني بحياته المختلفة عن حياة أبي. كان متمدنا مقابل بداوة أبي الراسخة. كانت له دراجة نارية من الحجم الكبير ويرتدي ملابس "دجينز" أكثر وقته. كما يمارس هواية الصيد في أوقات فراغه خاصة أثاء الليل. فقدنا هذا الخال سريعا اختطفه الموت القميء، البشع، بسرعة غير متوقعة ..هذا الخال هو الذي يسر لأبي الحصول على الشغل. لا أدري إن كان الزواج بأمي سابقا عن ذلك أم بعده. لكنني أميل إلى أنهما كان في وقت متقارب جدا. كلما تذكرت هذا الخال شعرت بحرقة وبخيانة الحياة.. أقول ذلك لأن حياة أمي مع أبي تتحدد بما قبل وفاة الخال وما بعدها ..حينما كان خالي حيا يسعى كان أبي رجلا هادئا وطيبا متعاونا ربط علاقة طيبة مع خالي، كان يأخذه معه إلى كثير من الأماكن الخاصة ويفتح عينيه على أشياء لا يعلمها إلا اللّه. كان يناديه كما يفعل باقي معارفه "مولاي أحمد" في تلك الفترة كان أبي يعامل أمي معاملة طيبة مفعمة بالتفهم والعطف والحنان، لكن ما إن مات هذه الخال حتى تغيرت معاملة أبي لها..

واستوطنت نفسها ربما لم تفارقها إلى يومنا هذا.نادرا ما رأيت أمي متمددة على فراش المرض. لقد تمتعت دوما بالجد اللازم لتحمل أوجاعها في صمت.

حتى أنني كنت لا أتصورها مريضة أو مشتكية مرتان فقط لزمت فيهما فراش المرض. وكانتا بالفعل خطيرتين ومؤثرتين حيث أنهما أفقدتاني توازني. كنت خائفا من أن أفقدها، لم أتصور الحياة بدونها ولا يمكنني مجرد التفكير في ذلك. اعتمادي شبه الكامل عليها، يجعلني أرى فيها عالمي، حياتي، وهوائي الذي أتنفسه.. إذا أصيبت أمي بمكروه حتما سأفقد عقلي، وافقد بذلك القدرة والرغبة في الاستمرار في الحياة، هكذا كنت أسر إلى نفسي خلسة، دون أن أقوى على سمع ما أحدثه بها.. هذا الرعب الذي يستوطن أعماقي، كان يتجلى بأشكال متعددة في الأحلام. خوفي من أن أفقدها كان يعبر عن نفسه في الحلم بشكل معاكس، إذ طالما رأيت في أحلامي أن أمي تموت بسبب من الأسباب.كنت أبكي في الحلم بمرارة...ببكاء متواصل حتى أشعر بأن قلبي يوشك أن يتوقف نبضه، ولكم تكون فرحتي كبيرة حين أستفيق من النوم وأجد أن فقدانها مجرد كابوس مزعج كان ذلك يتكرر باستمرار حتى

تعودت عليه، وأصبحت لا أصدقه بعد كل موت لأمي أعرف في قرارة نفسي أنها ستنبعث حية بعد أن أستفيق.

فقدت أمي جنينا سميناه "أحمد" تيمنا بذكرى خالي الذي اختطفه الموت في عنفوان عطائه. تحدثت عن ذلك في أحد الفصول السابقة لم تكتب لهذا الجنين الحياة، لو حدث العكس لكان لي الآن أخ أحتاج إلى وجوده كثيرا ولكان لأبنائي عم حتما سيحبونه، ويمنح لحياتهم وطعما مختلفا، وبالتأكيد كان سيفتح لهم وجوده احتمالات أخرى في الحياة، الحياة علمتني أنه بالرغم من العداوة والخصام والنفور بين الأقارب فهم في آخر المطاف من يساندون الشخص إذ ما تعرض لمكروه مادي أو معنوي، نعم للأصدقاء مكانة خاصة، لكنهم أبدا لا يمكنهم تعويض الأقارب.. توصلت إلى ذلك بعد وهم تملكني لمدة طويلة، كنت أعتقد أن الأصدقاء أفضل من الأقارب، لأن الأقارب يفرضون على المرء ولا يختارهم ...ابن عمك أو ابن خالك هو كذلك شئت أم أبيت.

أما الأصدقاء فالمرء هو من يختارهم، وبالطبع سيكون اختياره متوافق مع شخصيته، وبالتالي فالعلاقة مع الأصدقاء ستكون أمتن وأقوى لأنها مبنية على الاختيار.. بيد أنه بعد تجارب مريرة تأكدت بأنني كنت مخطئا في نظرتي هاته ،

فحتى وإن كانت منطقية ومغرية، إلا أنها غير صحيحة أو أن صحتها نسبية جدا على الأقل. الأقارب ببساطة يشعرون نحوك بالتزام دموي وأخلاقي، فيه نوع من الجبر لكنه جبرمفيد في نتائجه، أما الأصدقاء، فلا يرقون إلى ذلك بل تبقى علاقتك بهم محكومة بالاختيار وقد يختارون أن يبتعدوا أو تختار أنت ذلك لسبب من الأسباب.

هذا الجنين الذي فقدناه خلف في جسد أمي مضاعفات سلبية، خاصة داخل الرحم أورام ضخمة تكونت داخله، لحسن الحظ لم تكن أوراما خبيثة مسببة للسرطان، لكنها مع ذلك كانت تسبب لأمي وجعا متواصلا. تحملت أمي ألمها في صمت .. لكن الأمر تطور، بعد أن تناسلت الأورام، حتى أضحت لا تحتمل.

أجريت لأمي عملية جراحية، لزمت بسببها المستشفى لمدة طويلة تخلصت من الأورام، لكن الجراحة خلفت وراءها مضاعفات خطيرة، ستظهر آثارها بعد عشر سنوات تقريبا.

يبدو أن الأطباء نقلوا إلى عروق أمي دما ملوثا بالفيروس المتسبب في تشمع الكبد من فئة "س." ما إن بدا الاصفرار على وجه أمي حتى انتاب القلق جميع أفراد العائلة. لكنها استطاعت أن تؤثر فينا جميعا، وتبطل تخوفاتنا، مدعية بلهجتها الساخرة بأن الأمر لا يتعدى أن يكون اصفرارا عابرا، ظل قلبي وعقلي

منشغلين بحالتها، ولم يطمئن لي بال حتى أخذتها إلى معهد باستور لإجراء التحاليل المناسبة. بعد أيام تأكدت مخاوفي، فنقلت أمي على وجه السرعة إلى المستشفى، هناك خضعت لسلسلة من التحاليل، التي أكدت الإصابة بالمرض، بل وظهر كذلك مرض السكري الذي كان متخفيا، لا يعلن عن نفسه، يدمر صحتها في صمت. خضعت أمي لعلاج دقيق، حقنت خلاله بعدد من الحقن المركزة لمدة شهر تقريبا، حتى أصبحت معافاة بشكل كامل، ولا ينقصها سوى التعاطي مع داء السكري، الذي سيلازمها كرفيق ثقيل في حياتها.. إبان هذه المحنة لم تفقد أمي تفاؤلها وسخريتها. كانت تسخر من المرض، وتقيم علاقات طيبة مع كل نزلاء المستشفى وأطبائه وممرضيه... في وقت قصير أضحت لها شعبية كبيرة داخل المستشفى، وأصبح الجميع معنيا بالاهتمام بها، و قد حافظت على علاقات طيبة مع الكثيرين منهم بعد مغادرة المستشفى.

مطبعة وراقة بلال
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
Tél/Fax. 05 35 51 86 03
FES - www.imp-bilal.com